مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

رءوف توفيق

رحلات صحفية حول العالم

من الغرب .. إلى الشرق

اللوحة للفنان



الأعمال الخاصة

«هـــذا الكتـــاب»

مهما تعددت رحلات السفر للخارج.. إلا أننى فى كل مرة، أجد نفسى على مقعد الطائرة، تنتابنى مشاعر متضاربة من الفرح والقلق.

الفرح بالخروج من دوامة العمل الصحفى اليومى، والاحتكاك المتواصل بأحداث وبشر وأوراق.. يخيل لى - فى كثير من الأحيان - إنها متعمدة لأستنزافى تماماً. فأعود إلى بيتى فى آخر اليوم، ورأسى تحولت إلى ماكينة عرض سينمائى مستهلكة تسحب بدون ترتيب، وبتداخل مزعج، كل شرائط أحداث اليوم، وبقايا كلمات استوقفتنى وتعبيرات وجوه أحترت فى تفسيرها.. فى طنين متواصل حتى يهدنى التعب، ويسحبنى النوم إلى صباح يوم جديد لندور فى نفس الدوامة.

وهكذا أفرح بالسفر لأنه يعتقنى من هذا الحصار، حتى ولو لفترة مؤقتة.

أما القلق.. فهو الضريبة المستحقة التى تدفع فوراً نظير هذا الغياب عن العمل، ثم المواجهة المتوقعة بعد العودة للعمل.. كأن هناك شخص بداخلى لا يكف عن محاسبتى.. وصوته يرن فى أعماقى.. أنت تقول إنك مسافر لتجديد الرؤية والفكر واكتشاف ما يحدث فى كواليس الذى يمسكون بخيوط تحريك الأحداث فى العالم.. فهل أنت مستعد لهذه المهمة؟.. وما هو الجديد الذى ستكتبه.. وهل سيختلف هذا عما كتبه ويكتبه الآخرون؟!

تساؤلات تلاحقنى بعنف، وتجعلنى أجلس مشدوداً على مقعدى فى الطائرة، فى وضع التحفز وشحن كل بطاريات الاستعداد لليقظة والرصد.. وكأنى فى سباق لا أعرف كيف ستمضى وقائعه.

لم أعرف السفر لمجرد الاسترخاء والمتعة الشخصية.. بل أشعر دائماً أن هناك التزام لابد أن أوفى به تجاه قارئ من حقه أن يرى بين السطور، كل الصور والأحداث، وكل المواقف الإنسانية كما عشتها بنفسى.. بلا خداع أو تزويق.. فلست بائعاً للأوهام، ولا متجنيا بلا دليل.

وهكذا كانت كل رحلاتى الصحفية للخارج والداخل.. والتى أخترت منها بعض فصول هذا الكتاب.

ولابد أن أعترف منذ البداية.. أن القدر قد أسعدنى بأن أكون ضمن الوفد الصحفى المرافق للرئيس محمد حسنى مبارك فى العديد من رحلاته الخارجية. بعض هذه الرحلات كنا معه فى طائرة الرئاسة وسط مجموعة مختارة من كبار معاونيه والوزراء.. وتعودنا من الرئيس مبارك، فى كل رحلة من هذه الرحلات، أن يأتى بنفسه إلى مقاعد رؤساء التحرير ليفتح قلبه لهم بكل الود والبساطة، يجيب على كل التساؤلات بصراحته المعهودة، والتى يغلفها أحياناً ببعض المداعبات ببديهة حاضرة دائماً، وذاكرة قوية لا تخطىء.

وعندما أبدأ كتابى بهذه الرحلات مع الرئيس مبارك .. فإننى هنا أعتبر نفسى «شاهداً» على وقائع وتفاصيل أحداث هامة فى مسيرة بناء مصر الحديثة، والدفاع عن السلام وقضايا العدل والحق العربى.

ولا أدعى أننى كاتب سياسى محترف .. ولكن تجربتى الصحفية علمتنى أن أتوقف عند التفاصيل الصغيرة، والتى تبدو أحياناً أنها غير ذات قيمة .. ولكنى أعتبرها جزءاً أساسياً مكملاً للصورة .. ولهذا أحببت فن السينما .. ولهذا أيضاً أخترت أن يكون أول كتاب لى بعد كتبى الثمانية السابقة فى فن السينما .. هو هذا الكتاب عن فن صياغة الحياة، سواء كما يراها زعماء ورؤساء ورجال مال وأعمال .. أو كما يراها رجل الشارع العادى، سواء فى واشنطن، أو طوكيو، أو بكين، أو موسكو، أو برلين .. أو حتى فى أسيوط.

رءوف توفيق

العـــذاب والمتعـــة
فى المجتمع الأمريكى

بخمسة دولارات فقط، تستطيع ان تلتقط لك صورة مع الرئيس كلينتون وزوجته «هيلارى».. ولا مانع من أن تضع يدك على كتف الرئيس، أو فى جيبه أو حتى أن تطبع قبلة على وجه «هيلارى»..

المهم أن تدفع الخمسة دولارات!

فعلى السور الخارجى للبيت الأبيض الأمريكى.. يقف المصورون- واغلبهم من السود - وبجوارهم نماذج خشبية لصورة الرئيس كلينتون وهيلارى بالحجم الطبيعى، وعليك أن تختار كيف تقف بجوارهما لكى يلتقط لك المصور، صورة تذكارية لزيارتك لواشنطن.. تماماً كما يحدث عندنا فى المولد بالأحياء الشعبية.

وفى الإجازة الأسبوعية تمتد الطوابير أمام المصورين.. وكل زبون له وجهة نظر خاصة فى التعامل مع النموذج الخشبى لكلينتون وهيلارى أحيانا بسعادة غامرة.. وأحيانا بسخرية لاذعة! فكل واحد حر فى التعبير عن رأيه..

بينما على الرصيف المقابل للبيت الأبيض.. تقف مجموعات مختلفة من المتظاهرين يمسكون باللافتات التى تندد بسياسات امريكا سواء فى الداخل أو الخارج.. والمشهد يبدو وكأنه «هايد بارك» آخر.. ولكن على الطريقة الأمريكية.. فكل شىء يبدو هادئاً.. منظماً وكأنك داخل ديكور سينمائى لفيلم عنوانه «الحرية فى أمريكا»!

ولكن فى بعض الأحيان، وكما يخطئ بعض الممثلين بالخروج عن النص.. يخطئ أيضا بعض المتظاهرين، مثلما فعل«فرانشيسكو ديوران» عندما اطلق نحو ثلاثين رصاصة على واجهة البيت الأبيض.. وقيل إنه كان ينوى إغتيال الرئيس الأمريكى كلينتون.. وأيضا عندما اخترقت طائرة هيلكوبتر سماء البيت الأبيض، وسقطت داخل حديقته..

ولكل هذه الإحتمالات.. تشكلت لجنة لإعادة النظر فى الإجراءات الأمنية للبيت الأبيض.. وظهر إقتراح بإغلاق جزء من شارع «بنسلفانيا» وهو الشارع الذى يوجد به مقر الرئاسة الأمريكية.. ومنع المارة والسيارات من استخدامه

وقد وافق كلينتون على اقتراح إغلاق الشارع تحت ضغط شديد من اللجنة الأمنية.. وبهذا تفقد الصورة التقليدية للبيت الأبيض بعض مظاهرها السياحية!

• الورقة الثانية •

بالقرب من البيت الأبيض وعلى خط مستقيم يوجد مبنى الكابيتول على ربوة مرتفعة قليلا.. وحيث يبدو هذا المبنى واضحاً، شامخاً، من اية نقطة فى واشنطن، نظرا لتحريم الارتفاع بأى مبنى فى أى مكان فى واشنطن، إلى الحد الذى يطغى أو يحجب رؤية مبنى الكابيتول.

والساحة المتسعة أمام مبنى الكابيتول.. تشهد أحداثاً غريبة ومتناقضة.. مثلا شهدت الساحة عرضاً مثيراً للسيرك.. اشترك فيه ١٤ فيلاً ضخماً، وكلاب مدربة للرقص ومهرجون وفتيات استعراض..! وخرج من الكونجرس (مجلس الشيوخ ومجلس النواب) النائب الجمهورى الشهير« نيوت جنجريتش»رئيس مجلس النواب) ليقدم التحية للسيرك وليلتقطوا صورة له مع احد الأفيال.. وخرج أيضاً«روبرت دول» زعيم الاغلبية فى الكونجرس.. ووقف بجوار الفيل حائراً.. بينما المصورون يحومون حوله ينتظرون ماذا يفعل؟ وكان المشهد مثيراً.. فما علاقة السيرك بالكونجرس الأمريكى.. واتضح فيما بعد ان اقدم العائلات التى عملت فى السيرك جاءت لتحتفل.. أو تستنجد بالكونجرس.. بمناسبة مرور ١٢٥ عاماً على إنشاء هذا السيرك المسمى (سيرك أبناء رينجلنج).

بينما عشرات المتظاهرين يحاولون الاحتكاك بهم ومطاردتهم!!

متظاهرون يرتدون الفانلات المخططة الشبيهة بملابس المسجونين، وقد غطوا وجوههم بأقنعة على شكل الافيال.. واتضح أنهم جمعية حقوق الحيوان، وقد

حاولوا الاشتباك مع أعضاء فريق السيرك، ولكن الشرطة قامت بتفريقهم باستخدام بعض العنف، نظراً لمقاومتهم الشديدة.

فهذه الجماعة- ولها انصار كثيرون فى أمريكا- يرون ان استخدام الحيوانات فى السيرك، إهانة لا تغتفر للحيوانات.. وبالتالى فهم ضد استخدام تلك الحيوانات للترفيه عن البشر!! بينما اصحاب السيرك وأحفاد العم رينجلنج يؤمنون بأن من حقهم مواصلة تدريب الحيوانات واستخدامها فى عروض السيرك الذى يسعد الصغار والكبار، بدليل استمرارهم على مدى ١٢٥ عاما..!!

وكانت حكاية.. شاهدت بعض فصولها.. وقرأت المزيد من تفاصيلها فى صحف اليوم التالى، وقد اهتمت الصحف بإبراز صورة ضخمة لزعماء الكونجرس مع أحد الأفيال... وصورة أخرى اصغر حجماً لأحد أعضاء جمعية حقوق الحيوان فى حالة هياج، وقوات الشرطة تحاول شل حركته.

عالم غريب.. والأغرب منه تلك الواقعة التى حدثت فى نفس الساحة أمام مبنى الكابيتول.. وطيرت أخبارها وكالات الانباء بعد يومين من رحيلنا من واشنطن.

فقد احتشد خمسون الف سيدة، وبمشاركة بعض الرجال فى مظاهرة صاخبة للاحتجاج فيما اطلقوا عليه (العنف السياسى والجسدى ضد المرأة).. ووقفوا يندون من خلال الهتافات المكتوبة والمرسومة، بالبرنامج السياسى للسيناتور الجمهورى نيوت جينجريتش» رئيس مجلس النواب وسائر السياسيين الذين انضموا إليه.. والذى يسعى لخفض الإنفاق على برامج الخدمة الاجتماعية الخاصة بالمرأة والطفل.. والتشديد بقوانين جديدة للحد من حق الاجهاض. وقالت رئيسة إحدى الجمعيات النسائية إن العنف السياسى يتساوى مع العنف الجسدى. وعلى النساء أن يتمسكن بحقوقهن بوصفهن الأغلبية. وإلا يخضعن لهذه النزعات الإرهابية!!

والعنف السياسى وقد نعرفه.. أما العنف الجسدى الذى تشكو منه المرأة الأمريكية.. فله حكاية أخرى.

• الورقة الثالثة •

ساعة الجريمة.. لا تتوقف!

أصبح شائعاً فى المجتمع الأمريكى.. دعاوى الطلاق المرفوعة أمام المحاكم بسبب ضرب الرجل لزوجته.. لكمات وصفعات وشلاليت وتمزيق ملابس بخلاف الإهانات اللفظية القاسية.. ويقولون إن السبب فى ذلك هو ضغوط العمل التى أصبحت تحرق اعصاب الرجل فهو مطالب دائما بتحسين دخله بينما شبح الفصل من العمل يهدده فى كل لحظة، ومشكلة البحث عن عمل جديد تؤرقه.. حيث إن الأعمال الجديدة تتطلب مستويات أعلى فى التدريب والكفاءة. بينما تبدو المرأة الأمريكية أكثر استقرارا فى عملها ومن هنا انتشرت ظاهرة الرجل الذى يجلس فى البيت بدون عمل، بينما الزوجة هى التى تعمل وتقبض أجرها وتنفق على البيت. وهذا الوضع قد يتحمله البعض أحيانا.. ولكن بعد فترة.

بالتأكيد يحدث الانفجار.. انفجار العنف!

وهذا العنف الذى تشكو منه المرأة الأمريكية.. قد يأتى من زوجها.. وقد يأتى من الآخرين.. من لصوص الطريق.. والذين يهجمون على المنازل فى الأوقات التى تكون فيه المرأة بمفردها.. يسرقون.. ويغتصبون.. ويقتلون أحيانا من يعترض طريقهم.

وفى كل أسبوع تنشر جريدة «الواشنطن بوست» فى ملحقها عن أحوال المدينة.. صفحتين كاملتين تحت عنوان «ساعة الجريمة».. حيث تنشر الجريدة بلاغات المواطنين الواردة إلى اقسام الشرطة بالمدينة.. محددة بالساعة والدقيقة.. واشتراطات الاسم والعنوان كاملاً.

وبلاغات الحوادث المنشورة بالجريدة، اشبه ما تكون بالإعلانات المبوبة فى جرائدنا.. حيث تقسم الحوادث إلى انتحار- اغتصاب- سرقة- بلاغات أخرى.

والملاحظ أن المساحة الأكبر من نصيب بلاغات السرقة بأستخدام العنف.. وإن المرأة هى الضحية الأولى فى هذه السرقات، سواء اكانت تسير بمفردها فى الطريق أو تعيش بمفردها فى منزل!

• الورقة الرابعة •

الجريمة.. هى بعض العذاب والمتعة فى المجتمع الأمريكى..

عذاب الذين يقعون ضحية لها.. ومتعة للذين يتفرجون عليها ويتابعون اخبارها فى شبكات التليفزيون والصحف.

مثلاً.. كانت قضية اللاعب سيمبسون، المتهم بقتل زوجته وعشيقها.. هى قمة المتعة فى المشاهدة التليفزيونية. ورغم ان المحاكمة بدأت فى يناير الماضى، إلا أن نسبة المشاهدة فى التليفزيون لجلسات المحاكمة- التى تنقل على الهواء مباشرة- تطغى على كل نسب المشاهدة لكل البرامج والافلام والمسلسلات.

فهى مادة حية طازجة.. بها كل عناصر الدراما المثيرة.. سواء من اقوال الشهود «إلى ادعاء الاتهام» إلى مرافعات المحامين.. وتلعب كاميرات التليفزيون دوراً أساسياً فى تجسيد الإثارة والتشويق.. سواء بالنقلات السريعة والمكبرة على وجه «سيمبسون».. أو انفعالات هيئة المحامين.. أو المحلفين.. وردود الفعل على وجه القاضى.

وفى إحصاء إمريكى.. ثبت أن ربع الأمريكيين يشاهدون المحاكمة حية من على شاشات التليفزيون.. بينما انخفضت نسبة الذين يشاهدون الاخبار من ٦٠٪ إلى ٤٨٪.. وهذه النتيجة ازعجت بعض مسئولى الأخبار فى شبكات التليفزيون الأمريكى.. وقال احدهم: (إنها دلائل سيئة لكل الذين يعملون فى شبكات الاخبار سواء فى التليفزيون أو فى الصحف.. وعليهم أن يتداركوا أوجه النقص فى الخدمة الأخبارية التى يقدمونها.. فلن يساعدهم سيمبسون بعد أنتهاء قضيته)!

وقد استغلت شبكات التليفزيون التى تنقل على الهواء مباشرة محاكمة سيمبسون.. فى رفع قيمة الاعلانات المذاعة أثناء المحاكمة، إلى أعلى رقم شهدته أجور الاعلانات.

فى نفس الوقت الذى تحولت فيه هذه القضية.. إلى تجارة رابحة بالملايين.. حيث تم استثمار القضية وفضول الناس حولها.. إلى عدة كتب.. ومنافسة ضارية لتحويلها إلى فيلم سينمائى.. بالإضافة إلى تجارة الفانلات المطبوعة عليها صور سيمبسون «والبوسترز».

وليس هناك أى مبالغة فيما ذكرت.. فقد تصادف وجودى فى مطار واشنطن فى انتظار الطائرة التى تقلنى إلى نيويورك.. أن ساد الصمت كل أرجاء المطار، وجلس أغلب الركاب على مقاعدهم.. ورؤوسهم مصوبة على شاشات التليفزيون داخل صالة المطار.. يتابعون جلسة جديدة من محاكمة سيمبسون.. وقد اثارنى هذا الانتباه الشديد.. إلى درجة أن صوت مذيعة المطار التى تعلن عن قيام الرحلات أصبح يتكرر أكثر من مرة... حتى ينتبه الجالسون على مقاعدهم.. وسألت جارى على المقعد المجاور عن سر هذا الاهتمام الشديد بهذه المحاكمة.. فنظر لى فى دهشة وكأنى من كوكب آخر.. ثم قال ببساطة مذهلة.. (إنها لعبة مثيرة بين الادعاء والمرافعة.. لعبة ذكاء مسلية جدا.. ألا تراها كذلك؟)

ولم أدر ماذا اقول.. والتزمت الصمت وكتمت دهشتى من مجتمع تحولت فيه جريمة قتل.. إلى لعبة مسلية!!

خرقت قاعدة الانتباه إلى شاشات التيفزيون من حولى.. وفتحت الجريدة الصباحية لأجد على الصفحة الأولى خبراً كبيراً عن اغتيال المطربة «سيلينا» التى لقيت مصرعها فى أحد موتيلات «تكساس» والقاتل مجهول. وقالوا عن هذه المطربة إنها «مادونا- تكساس» ولها شعبية عريقة خصوصاً بين الطبقة العاملة.. فهى ترقص وتغنى بحيوية وسحر خاص.. تمزج بين أصولها الأسبانية، والموسيقى العصرية.. وقالوا إن عمرها ٢٣ عاما فقط.. وفازت اغانيها بعدة جوائز.. والبحث جار عن القاتل.!

طويت الجريدة.. وأنا اتساءل.. هل ستكون «سيلينا» هى اللعبة الجديدة المسلية لجمهور التليفزيون والصحف؟!

• الورقة الخامسة •

يرى عدد كبير من المراقبين للسياسة الامريكية.. انها فى طريقها إلى «الانعزالية». والبعد عن التورط فى المشاكل الدولية.. ويؤسس هؤلاء المراقبون اعتقادهم هذا بالدعوات التى بدأت تظهر بقوة من زعماء الحزب الجمهورى ..وهذه الدعوات تقوم على أساس إصلاح الاقتصاد الأمريكى أولا، وإصلاح الخلل فى البنية الاجتماعية الأمريكية.. قبل الاهتمام بالعالم الخارجى.

وتقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية لدول لا تخدم المصالح الأمريكية.

والدعوة إلى الانعزالية، يمارسها المواطن الأمريكى من تلقاء نفسه.. فهو يكاد لا يهتم بما يحدث فى العالم.. وإنما اهتمامه الأكبر محصور داخل ذاته، وعمله، ومزاجه الخاص.. أما بعد هذا فلا شىء يهم.

وانخفاض مستوى التعليم فى المدارس الأمريكية.. يلعب دوراً أساسياً فى تكوين هذا الفهم القاصر للمواطن الأمريكى.. ولهذا من الغريب أن تلحظ أن النسبة الكبرى من الطلبة فى الجامعات الأمريكية أغلبهم من الطلبة الأجانب الوافدين إلى أمريكا.. أما الطلبة الأمريكيون أنفسهم فمنتهى غايتهم إتمام الدراسة الثانوية.. ثم العمل بعد ذلك!

ومشكلة انخفاض مستوى التعليم، اثارها الرئيس كلينتون فى بداية توليه للسلطة الأمريكية.. وهى مثارة بشكل أوضح بعد مانشر تقرير جامعة«أوهايو» الذى يحذر من انخفاض مستوى المدرسين الذى وصل إلى درجة الخطر، ومن هنا ظهر الاقتراح بربط مرتبات المدرسين بدرجات نجاح الطلاب.

وهذا الاقتراح اثار الكثير من الجدل داخل المدارس، وبالتحديد مع اتحادات المدرسين حيث قالوا إن هذا التفكيرينطوى على ظلم فادح للمدرسين.. فالطلبة

من بيئات اجتماعية مختلفة ومسئوليات أسرية متفاوتة فى الدخل والمعاملة.. مما ينعكس على أسلوب تربيتهم ودرجة استيعابهم للدروس.

ولكن رئيس مجلس المدارس بواشنطن.. استنكر هذا العذر..وقال.. إذا استسلمنا للأعذار عن فشل مستوى التعليم.. فلن نصل إلى النجاح ابداً.. وأعلن أنه سيطبق معايير محددة لتقييم عمل المدرسين، ومعايير أخرى لقياس درجة استيعاب الطلاب.. وسيطبق هذا القرار ابتداء من الشهر القادم.

وجاء المجلس الاعلى للتعليم ليحسم الخلاف بين المدرسين وإدارات المدارس ليقرر «إننا لم نعد نرضى بمستوى التعليم المنخفض، وفى نفس الوقت هناك استياء من الجمهور دافعى الضرائب لإنخفاض مستوى التعليم لأبنائهم.. ولهذا فقد وافقنا على التنفيذ الفورى بربط مرتبات المدرسين بدرجات الطلاب.

وهكذا حسمت القضية التى شغلت الولايات الأمريكية طوال الشهور الماضية.. وخرجت جرائد واشنطن تؤيد هذا القرار.. وهى تكشف أن هناك ألف مدرس من خمسة الاف فى واشنطن، حققوا أسوأ النتائج.. وطالبت الصحف بفصل جميع المدرسين الذين يفشلون فى تحقيق مستوى مرتفع بين الطلبة.

فى مجتمع الوفرة.. وحيث كل شىء متاح لك، شرط أن تدفع الثمن.. عليك أن تقبل بالدخول فى سباق محموم لكى تملك المال الذى يحقق لك رغباتك.

والرغبات لاتنتهى.. والسباق أيضا لاينتهى!

وفى هذا المجتمع يتجسد المعنى الحقيقى.. للمتعة والعذاب!!

الوحش..
الذى أصبح حقيقة !

كيف تصنع قنبلة فى بيتك » . . عنوان برنامج تليفزيونى إذاعته منذ فترة إحدى شبكات التليفزيون الأمريكى !

جاء خبير متفجرات يشرح فى هدوء وبساطة المواد والمقادير اللازمة لصنع قنبلة، وهي مواد يمكن شراؤها من أى متجر للأسلحة (! !) وأمام كاميرات التليفزيون قام ذلك الخبير بعمل الخلطة اللازمة وطريقة تعبئتها فى أنبوبة من المعدن . . وشرح بالتفصيل كيفية التحكم فى تفجيرها بدقة . . مؤكدا على المساحة التى سيشملها التفجير . .وكيف يمكن التنوع فى صنع القنبلة بإضافة كميات من المسامير المدببة الاطراف . . أو كرات حديدية صغيرة . . فكل شيء حسب الطلب . . وحسب المزاج ! !

مر هذا البرنامج مرور الكرام وسط طوفان البرامج التليفزيونية التى تزدحم بها شاشات التليفزيون الامريكى . البعض اعتبره من ضمن برامج الإثارة والتشويق . . والبعض الآخر اعتبره برنامجاً علمياً . . وآخرون رأوا فيه تطويراً لبرامج المرأة والمطبخ . . وخروجاً عن الوصفات التقليدية كطريقة صنع طبق بيتزا . . أو فطيرة التفاح ! !

بعد أيام . . اعتقل بوليس« لوس انجلوس » شخصاً اسمه« دانييل بول إيفانز » بتهمة إرسال طرود ملغومة إلى صحيفة « لوس انجلوس تايمز » وإلى استوديوهات شبكة « إن بى سى » وأيضاً إلى خمس محطات تليفزيونية محلية

كل طرد به قنبلة يدوية موضوعة فى زجاجة . . وكان واضحاً أن هذه القنابل صنعت بطريقة واحدة . . وأن هناك خطأ مشتركاً فى تركيبها أدى لعدم انفجارها . . وبالتالى لم يصب أحد بسوء .

وكشفت التحقيقات أن هذا الرجل كان يرسل طرود المتفجرات باسم « المسيح المنتظر » ، وبتهديد بالقيام بتفجير مدمر ما لم تجب طلباته . . ! ! ولم توضح الشرطة ماهى هذه الطلبات . . ولكن المدعى العام فى لوس أنجلوس وجه

للمتهم تسعة اتهامات باستخدام مواد ناسفة، وحيازة متفجرات لإشعال حرائق.. وقررت المحكمة احتجاز المتهم على ذمة التحقيق ودفع كفالة قدرها أربعة ونصف مليون دولار!!

وخرجت صحف ولاية كاليفورنيا تصرخ من الإرهاب القادم.. والرعب الذى يجتاح الأبرياء.. لأن أحدا ما - على حد تعبير الصحف - يستطيع ببساطة شديدة ان يصنع قنبلة أو عبوة ناسفة فى جراج بيته!!

• الورقة الثانية •
طباخ السم!

حدوتة الرجل الذى رسم نمراً على الورق.. وصدق ما رسمه.. حتى دبت الحياة فى نمر الورق، وتحول بالفعل إلى وحش مفترس التهم صاحبه الذى رسمه.

هذه الحدوتة القديمة المتداولة.. أصبحت واقعاً يومياً تعيشه أمريكا الآن.

رسمت أمريكا كل الوحوش المعروفة وغير المعروفة.. تفننت فى إبراز المخالب والأنياب.. صواريخ وأعمدة من نار.. قنابل حارقة وقنابل تشطر الأجساد.. استخدمت كل تكنولوجيا القتل والتدمير.. رسمت كل شىء بعناية على شرائط الأفلام السينمائية والتليفزيونية.. وحتى قصص مسلسلات الكارتون للأطفال.

ووقفت فخورة بما رسمت.. وأحاطته بكل الاشكال المبهرة للدعاية وصدرته لكل انحاء العالم فى شبكة توزيع رهيبة ومدعومة بمليارات الدولارات.. وأسماء كل النجوم والفنانين.. بأجسادهم الملونة والعارية.

وجلست هى تتفرج عليها معجبة بنفسها، سعيدة بما انجزت.. وشاشات السينما والتليفزيون تقطر بدماء.. وتضج بطلقات الرصاص والمطاردات.. وشذوذ جرائم القتل والاغتصاب.

وفجأة . . تحول هذا الخيال المجنون ، المرسوم على الشاشات . . إلى واقع حي ، وحقيقة يومية تشهدها شوارع أمريكا . . عنف . . ومخدرات . . وابتزاز وسطو مسلح . . واغتصاب . . وقتل «مجانى ، بلا مبرر

وتحقق القول . . بان طباخ السم يذوقه .

كل يوم . . كل يوم . . عشرات الجرائم تجرى وراءها كاميرات التليفزيون وتحقيقات الصحف ، لتعيد تقديمها بكل شهوة إغراءات النشر . . العناوين الضخمة والتفاصيل المثيرة .

دوامة لا تنتهى . . من الشاشة إلى الواقع اليومى . . ومن الواقع اليومى إلى الشاشة مرة أخرى لمزيد من الدم والعنف . . والسباق محموم . والمباراة شرسة . . وصفها أحد منتجى السينما الأمريكية بقوله :

إنه إذا كان التليفزيون يعرض فى كل نشراته الإخبارية . . احداثا مليئة بالعنف والقتل والصراعات الدموية . . فإن من يذهب للسينما لابد أن يجد شيئاً مختلفاسألوه عن هذا الشيء المختلف . . قال ببساطة مذهلة : مزيداً من الإثارة . . مزيداً من المطاردات . . مزيداً من العنف والرعب ! !

وهكذا أصبح السباق . . من يشعل النار أكثر . . ومن يتفنن فى الضرب على الأعصاب . . وقد قالها بصريح العبارة أحد مخرجى السينما الأمريكية وهو يستفز همم كتاب السيناريو بقوله : (إننا نريد شخصيات جديدة . . ذكية . . ومخادعة . . وقوية . . تستطيع أن تلهب مشاعر المتفرج وتجعل صرخاته تزلزل قاعات العرض) ! !

وهم يفتخرون بمبتكراتهم فى مشاهد العنف . . بل ويحصون عدد هذه المشاهد فى الفيلم ، وهل اقترب من الرقم القياسى . . أو حقق رقماً جديداً مذهلاً .

مباراة بكل معنى الكلمة . . فقد اشار أحد المحللين للسينما الأمريكية أن أحداث أفلام الممثل (أرنولد شوارزينجر) تضمن ١٨٧ عملاً من أعمال العنف ، وهو بهذا حطم الرقم القياسى السابق فى فيلم لنفس الممثل حيث قدم ١٨٤ عملاً من أعمال العنف فقط ! !

والنتيجة . . هى الكارثة .

كما وصفها رجال الفكر وخبراء الاجتماع وعلم النفس.. وهم يرصدون حالات العنف الدموى بين اطفال المدارس الأمريكية.. وقالوا إن هذا الجيل الذى يتغذى يومياً بعنف شاشة السينما أو التليفزيون هو جيل سيحول الحياة القادمة إلى جحيم.. وستندثر تماماً كل القيم الإنسانية النبيلة.

ثم بعد هذا تصرخ أمريكا الآن.. من الإرهاب!

• الورقة الثالثة •
جرائم الأطفال

اثناء زيارتى لأمريكا.. تابعت- مضطرا- جريمة طفل عمره اثنا عشر عاماً فقط اشترك مع مجموعة من الصبية فى اغتصاب فتاة صغيرة عمرها ١٣ سنة.. وقتل سيدة عجوز!!

الجريمة افردت لها الصحف الأمريكية مساحات هائلة.. وعرض التليفزيون لقاء مع رئيس شرطة لوس انجلوس- حيث وقعت الجريمة- ليحكى فيه كيف ان هذا الطفل (١٢ عاماً) سجله الإجرامى كان خطراً لدرجة أن والدته كانت تخشاه.. وهى التى قامت بنفسها بتسليمه إلى الشرطة بعد أن عرفت تفاصيل الحادث الأخير.

والحادث- كما روته الصحف- ان مجموعة من عشرة اشخاص اعمارهم تتفاوت من بين ١١سنة و ٢٠ سنة.. هاجموا فتاة صغيرة واقتادوها إلى منزل مهجور وتناوبوا اغتصابها.. وتعالت صرخات الفتاة ألما ورعباً.. وسمعتها جارة عجوز عمرها تجاوز الثمانين.. فخرجت إليهم تهددهم وتحاول إنقاذ الفتاة.. فما كان من هذا الصبى الصغير (١٢عاما) إلا أن شهر مسدسه واطلق النار عليها.. فارداها قتيلة فى الحال!!

وجاء البرنامج التليفزيونى بالجيران ليحكوا عن هذه العجوز التى قتلت.. وعن هؤلاء الصبية المدججين بالأسلحة، والذين تمتلئ نفوسهم بكل العنف والوحشية.. ولا أحد من الكبار قادر على السيطرة عليهم!!

والكلمات مريرة ومفجعة.. ولكن هذا هو حصاد العنف.

والغريب تماماً.. أن أمريكا - الآن فقط - تصرخ أن الإرهاب ضرب في أعماقها.

• الورقة الرابعة •

الإرهاب.. وقوة الإعلام:

التتابع السريع.. لحادث انفجار طائرة (T.W.A) بعدد ضحايا ٢٣٠ شخصاً.. ثم انفجار قنبلة في حديقة سنتنيال بقلب القرية الأوليمبية باتلانتا.. هذا التتابع خلال عشرة أيام فقط.. كان بمثابة الصدمة القوية التي زلزلت امريكا.. وشعر بها كل مواطن أو زائر لها.

فقد تولد الإحساس بأن الخطر على الأبواب.. وارتبك الجميع.. وتوالت ردود الفعل.

إجراءات أمن مشددة في كل المنشآت الحيوية.. عمليات التفتيش الدقيقة في المطارات. تفتيش الحقائب وتفتيش ذاتي.. وكلاب بوليسية تحوم وتشمشم بحثاً عن المتفجرات.. وطوابير طويلة ممتدة بالساعات على مداخل ومخارج المطارات، وعبر بوابات اليكترونية متعددة وعلى احدث طراز.

فمازال التفكير الأمريكي يتوهم أن الإرهاب الذي لحق بهم.. هو إرهاب مستورد.. وبالتحديد من منطقة الشرق الأوسط!

ولا يريدون الاعتراف صراحة - أو علانية - بأن المجتمع الأمريكي يفرز الإرهاب أيضاً.. إرهاباً محلياً تماماً.

ربما الإحساس بالعظمة والقوة والتفوق.. هو الذي يمنعهم من الاعتراف بالحقيقة.

فالإرهاب عجز وتخلف.. فكيف يليق بهم، وهم الأقوى والأغنى.. وهم بلد الحريات والديمقراطية.. أسياد العالم!!

ولهذا عندما فكرت الإدارة السياسية الأمريكية فى مواجهة الإرهاب.. فكرت خارج الحدود أولا.. وعلقت الاتهام ببعض دول الشرق الأوسط.. واصدر الرئيس كلينتون قراره بالعقاب الاقتصادى على ليبيا وإيران.. من خلال حظر التعامل مع الشركات التى تستثمر أكثر من أربعين مليون دولاراً سنوياً فى إيران وليبيا.. واحتجت الدول الأوروبية على هذا القرار، الذى يمس مصالحها وتعاملاتها الاقتصادية.. ولكن أمريكا قالت.. وعلى الجميع الانصياع.

ما لم تقله أمريكا صراحة.. ان الإرهاب مشكلة داخلية ايضاً مشكلة فرضتها ظروف اقتصادية واجتماعية ونفسية داخل المجتمع الأمريكى.

وما لم تقله الإدارة السياسية.. قاله المحللون وخبراء الاجتماع فى أمريكا.. وقالته مقالات بعض الكتاب والمعلقين فى الصحف الأمريكية

قالوا: إن الإرهاب الذى تشكو منه أمريكا الآن.. ليس كله سياسياً.. إنما هو أيضا إرهاب إجتماعى ونفسى.. يشعر به بعض المواطنين فى أمريكا.. سواء اكانوا افراداً.. أو جماعات منظمة تتستروراء معتقدات دينية أو ايديولوجية معقدة.. وهذه الجماعات المنظمة لها طقوسها الخاصة، واماكن معروفة.. ولها أيضاً جرائد ونشرات وإذاعة خاصة.. ومظهر خارجى خاص.. كحلق الرءوس.. أو ارتداء زى موحد.. أو التمسك بلغة معينة، ليست بالقطع هى اللغة الإنجليزية.. لغة الحواروالتفاهم فى المجتمع الأمريكى.. أى انهم يرفضون الحياة الأمريكية، رغم انهم يعيشون على أرض أمريكية!!

• الورقة الخامسة •

قانون.. يفرض اللغة الإنجليزية

ولهذا.. لم يكن غريباً.. أن يوافق مجلس النواب الأمريكى على مشروع قانون ينص على ان اللغة الإنجليزية هى اللغة الرسمية الوحيدة للبلاد.. وجاءت نتيجة التصويت (٢٣٩ صوتا مقابل ١٦٩) أى أن هناك فى مجلس النواب

الأمريكى من يرفض اعتبار اللغة الإنجليزية هى اللغة الرسمية.. ومنطقهم انه فى ولايات الجنوب، والجنوب الغربى مثل كاليفورنيا وتكساس ونيو مكسيكو، واريزونا.. تعيش جاليات كبيرة من المكسيك وامريكا الوسطى الجنوبية.. وان هذه الجاليات تطلب بان تكون الاسبانية هى لغة التعاملات الرسمية، بل إن العديد من المدارس التى يتلقى فيها ابناء هذه الجاليات تعليمهم، لا تفرض عليهم تعلم اللغة الإنجليزية.. مما ادى إلى أن بعض المناطق فى الولايات الأمريكية- وحتى فى نيويورك- وكأنها مناطق مكسيكية أو مناطق من دول امريكا الجنوبية.. وقد استقر هذا الوضع الغريب لظروف اقتصادية بحتة.. حيث تشكل تلك الجاليات مصدراً يوفر القوى العاملة الرخيصة،والتى يرفض الأمريكيون القيام بها:

وفى مثل هذه الظروف.. قد يشعر المرء بالدونية.. بأنه مواطن الدرجة الثانية أو الثالثة.. ويدفعه الضياع والإحباط لأن يرتكب جريمة.. لينتقل إلى منطقة الضوء والاهتمام فى أجهزة الإعلام!!

فالإعلام الغربى يجرى وراء الخبر المثير.. فلماذا لا يكون هو صاحب هذا الخبر المثير.. يظهر على شاشات التلفزيون -وفى الصفحات الأولى من الجرائد!!

منطق مريض.. ولكنه منطق اعترف به المحللون الذين درسوا العلاقة بين الجرائم الفردية وقوة الإعلام!!

فالعنف ينمو ويتغذى.. بسطوة الإعلام وجاذبيته وإنتشاره!!

• الورقة السادسة •
الفيلم الذى تتحدث عنه أمريكا

ونعود إلى سطوة السينما الامريكية وإلى الفيلم الذى يكتسح دور العرض ويحقق اعلى الإيرادات فى رقم قياسى غير مسبوق.. وهو فيلم: «يوم الاستقلال»

للمخرج رولاند اميريش.. والذى لم يعتمد على أى من النجوم المشهورين.. ولكنه حقق مستوى متميزاً من الحرفية الفنية التى اذهلت الجميع.

وقد شاهدت الفيلم فى أحد دور العرض بواشنطن انه فيلم واكتشفت انه فيلم دعائى صارخ لأمريكا.. يعلن بوضوح أن أمريكا هى منقذة العالم.. ولكى يصل إلى هذه النتيجة.. اخترع قصة خيالية عن هجوم غامض من مركبة فضائية مهولة الحجم تغطى قرص الشمس وتنطلق فى الفضاء بسرعة رهيبة مصحوبة بعواصف هوائية وقوة ضغط تزلزل الأرض.

وهذه المركبة الفضائية تفتح نيرانها لتنسف كل المبانى والمنشآت الضخمة فى لحظة جهنمية.. فتندفع الحرائق وتطير السيارات فى الهواء، وكأنها كرات من الورق.. وتصل هذه المركبة إلى سماء نيويورك فتسحق كل ناطحات السحاب.. وتحول الشوارع والميادين إلى خرائب وحرائق وذعر بشرى يفوق الخيال.. وتتحرك المركبة إلى واشنطن لتنسف كل معالم المدينة، وبالطبع من بينها البيت الأبيض.. ولكن الرئيس الأمريكى الذى يقدمه الفيلم يتصرف بهدوء وثقة ويستقل طائرة خاصة مع كبار معاونيه.. ولا يلحق بأن يأخذ زوجته معه.. ولكنه يستطيع فقط أن يصحب طفلته الصغيرة التى تنام على كتفه مرعوبة.

وإلى مركز أبحاث الفضاء الأمريكى تصل طائرة الرئيس ليبحث مع معاونيه كيف يمكن وقف زحف هذا الغزو الفضائى.. وفى معادلة أمريكية محسوبة تماماً، يقدم الفيلم طياراً مقاتلاً (اسود اللون) وعبقرى كمبيوتر (يهودى صراحة) ومن خلالهما يبدأ البحث عن إبطال مفعول هذه المركبة الغامضة.. وفى يوم ٤ يوليو (يوم الاستقلال الأمريكى) يعلو نداء قائد القوة الأمريكية بأنه يجب أن نعيد مجد هذا اليوم العظيم.. وينطلق الأسود والأبيض ليحققا معاً النصر على هذه المركبة الفضائية الممتلئة بالكائنات الغريبة المتوحشة ذات الأذرع الطويلة والتى لا تتأثر بطلقات الرصاص أو الصواريخ.

القدس..
وفنجان قهوة مع كلينتون!

صديق مصرى، مغترب فى أمريكا منذ أكثر من عشرين عاماً.. سألته كيف ترى أمريكا الآن؟!

قال: عندما جئنا إلى هنا... كانت أمريكا تعنى الحرية(Free Country).. أما أمريكا الآن فقانونها السائد هو المصلحة.. البيزنس.. كم تدفع لكى تحصل على ماتريد؟!

وصمت صديقى لى متسائلاً: هل فهمت ما أقصده؟!

وأومأت برأسى.. أعتقد اننى فهمت!!

فى نيويورك.. اقمت بفندق فى الطابق الحادى والأربعين.. ناطحة سحاب مهولة.. من خلف زجاج نافذة الغرفة، كنت ارقب المكان من حولى.. حصار من ناطحات السحاب.. وكأنها من الصلب.. حادة وشاهقة، فى زنزانة ضخمة تحجب السماء ونور النهار.. وعندما تضاء ليلاً تكتشف خلف زجاج حجرات ناطحات السحاب.. مكاتب عمل مكدسة بالموظفين، وكأنهم جيوش من النمل، تتحرك وتعمل وتتصارع داخل علب كبريت ضيقة.

وشعرت بالاختناق.. وخاطر غريب يحوم فى رأسى.

هل يفهم أحد هؤلاء مشكلة الشرق الأوسط.. هل يشعر أحد بمدى الغضب والاحتجاج فى الأراضى العربية.. هل يعرف أحد منهم ما يجرى الآن فى القدس وفى جبل أبو غنيم؟!

سخرت من نفسى لهذا الخاطر الغريب.. وأنا المح من مكانى خلف زجاج النافذة.. جيوش النمل وهى تترك مكاتبها فى ناطحات السحاب بعد ساعات العمل.. وتهرول إلى الطريق.. كل فى سيارته.. وتتكدس السيارات.. ويضيق الطريق أكثر مما هو ضيق.. وكل واحد فى عالمه الخاص، ويسعى إلى مقهى أو مطعم أوبيت مع صديقه أو زوجه أو عشيق.. يفرغ هموم اليوم ويحلم ببيت أوسع.. وسيارة أحدث.. وأموال أكثر.. وسلطة أكبر!!

فهذا هو قانون «المصلحة».. وكم تدفع لكى تحصل على ماتريد؟!

كم تدفع من عمرك وأعصابك ومبادئك.. لكى تحصل على وظيفة جديدة.. أو سلعة مثيرة.. أو امتياز أفضل.. فى سوق لا تهدأ لحظة من الدعاية المبهرة، والإغراءات الجذابة لتمص كل ما فى جيبك وتدفعك قسراً لكى تعمل أكثر وأكثر، وتدور حول نفسك فى خيلاء براق كاذب.. ودوامة لاتنتهى!!

فهل يبقى هناك شىء لنا من الاهتمام. أو حتى مجرد المعرفة؟!

قد يقولون عنا سطوراً قليلة فى جرائدهم.. أو يشاهدون عنا حدثاً مثيراً تعرضه شبكات التليفزيون.. ولكن حتى هذه المعرفة، غالباً ما تكون ملونة بوجهة نظرهم.. فقوة الإعلام محكومة تماماً بمصالحهم.

ولايبقى لنا كعرب سوى أن نخترق هذا الحصار.. ليسمعوا صوتنا.. ويدركوا عدالة قضيتنا.. ويفهموا معنى حرصنا الكامل على تحقيق السلام العادل.

وهذا ما تفعله القيادة المصرية ودبلوماسيتها النشطة.. وماتبلور أخيراً خلال زيارة الرئيس مبارك إلى وشنطن. ولقاءاته المتعددة مع مركز صنع القرار الأمريكى. وكبار الكتاب والصحفيين الأمريكيين، وحواراته الصريحة مع شبكات التليفزيون الأمريكية.. وإعلانه الواضح برفض قرار «الفيتو» الأمريكى، وتحذيراته المخلصة والمتكررة من خطورة الوضع فى الأراضى العربية المحتلة أزاءسياسات إسرائيل التوسعية.

وكانت قمة التحدى.. بل الفجور.. أن يعلن نتانياهو عن قرار إنشاء المستوطنة اليهودية فى القدس الشرقية وحجته أن كل العواصم تنمو لتتسع لزيادة السكان.. فلماذا لا تتسع القدس لسكان إسرائيل، وكأن القدس مدينة بلا تاريخ أو صاحب.. وكأن العرب لاحق لهم فى أرضهم.. ولاحق لهم فى التوسع والنمو.. وكأن العالم فوضى تحكمه الفتوات والبولدوزرات!!

ولكن.. هل تهتم أمريكا بما حدث فى منطقتنا؟!

قد لا يهتم رجل الشارع العادى.. وعذره أنه مطحون فى دوامة: ماذا يدفع لكى يحصل على ما يريد..؟!

ولكن الإدارة الأمريكية ما عذرها.. وهى التى أعلنت التزامها كراعية لتحقيق السلام فى الشرق الأوسط. بل إن مصالحها السياسية والاقتصادية مرتبطة بتحقيق هذا السلام؟!

عذرها. انها لا تملك إدارتها الحرة.. صحيح انها بلد (Free Co-nutry).. ولكن تكبس على انفاسها مؤسسة صهيونية قوية، تشعبت داخل قمة النظام وفى عروقها وشرايينها الحيوية.. وهذه المؤسسة الصهيونية قادرة على أن تشل الحركة حينما تريد.. وتغير الاتجاه بما يخدم مصالحها.. وتفرض شروطها بكل جبروت القوة والنفوذ!!

وما حدث مؤخراً بالنسبة لقرار «الفيتو» الأمريكى.. لا يعنى أن الإدارة الأمريكية ساذجة بالقدر الذى لا تفهم فيه معنى قرارها «بالفيتو» الذى يشجع حكومة نتانياهو على الاستمرار فى سياستها الاستيطانية التوسعية.. ولكن جاء قرار «الفيتو» كنتيجة مباشرة لضغط المؤسسة الصهيونية التى ترى ان مصالحها فى منطقة الشرق الأوسط. أهم من مصالح أمريكا ذاتها.

وهذا التناقُض.. والتخبط فى المصالح.. تدفع ثمنه الإدارة الأمريكية. تدفعه من رصيد مصداقيتها.. ومن شجاعة تنفيذ التزاماتها لتحقيق السلام فى المنطقة.

ليس هذا فقط.. بل إن الإدارة الأمريكية تدفع الآن- تحت كل عناصر التشهير والتحقيقات- ثمناً باهظاً لخضوعها لقانون «المصلحة» الذى اصبح سائداً فى الشارع الأمريكى.. والحياة الأمريكية.

وإذا كان المواطن العادى.. مضطرا لأن يدفع لكى يحصل على ما يريد.

فإن رجل السياسة، ورجل الأعمال.. مضطر أن يدفع أكثر، لكى يحصل على ما يريد.. من امتيازات، وعلاقات مع قمة النظام.

وهذا ما كشفت عنه -بضراوة- التحقيقات حول تمويل الحملة الانتخابية الثانية للرئيس كلينتون.. وكيف سمح كلينتون - سواء اكان يدرى أم لا يدرى - بتحويل البيت الأبيض إلى فندق أو ناد يقبل التبرعات - حسب تسعيرة محددة - من المشتاقين إلى التقرب لقمة النظام، وصناع القرار في البيت الأبيض!!

البيت الأبيض.. فرجة لمن يدفع.. ومصلحة لمن يدفع أكثر!

المعروف أن الحملة الانتخابية لفترة الرئاسة الثانية لكلينتون، وأعضاء الكونجرس.. قد كلفت الحزب الديمقراطى ما يقرب من ١,٢ مليار دولار.

وبدا الحزب الجمهورى المنافس فى الكشف عن اسماء كبار المتبرعين لحملة انتخابات كلينتون.. ثم صعد الحزب الجمهورى هجومه على الرئيس كلينتون بالكشف عن تفاصيل تأجير البيت الأبيض.. وتسعيرة شرب فنجان قهوة مع الرئيس.. أو التقاط صورة معه.. أو الإقامة الكاملة فى غرفة نوم الرئيس لنكولن!!

وانفتحت شهية الصحافة الامريكية لهذه الفضيحة.. وتم نشر اسماء كبار المتبرعين.. وتفاصيل استباحة البيت الأبيض.. وتولى الصحفى الشهير «بوب وودورد»- الذى كان قد فجر من قبل فضيحة ووترجيت- فى اتهام «آل جور» نائب الرئيس.. بأنه كان على علم بما حدث.. وانه وافق شخصياً على بعض الخطوات التى تمت بالنسبة للتبرعات المالية.

وأصبح الوضع ملتهباً.. لدرجة أن مستشارى الرئيس كلينتون نصحوه بالا يحضر «آل جور» المؤتمر الصحفى بين الرئيسين مبارك وكلينتون.. خوفاً من إحراجه بالأسئلة التى قد تخدش صورته كنائب للرئيس.

ولكن رغم عدم حضور «آل جور» لهذا المؤتمر الصحفى.. إلا ان الموقف لم يسلم من اسئلة صريحة وجهت للرئيس كلينتون حول مدى علمه، ومدى

موافقته على ما حدث . . وانكر كلينتون علمه بما كان يجرى فى كواليس جمع التبرعات للانتخابات . . وأعلن انه يضع الأمر كله للتحقيق فى لجنة خاصة لتقصى الحقائق .

وقد أوضحت كشوف أسماء كبار المتبرعين- وعددهم ٢٤ شخصاً -أن غالبيتهم من كبار رجال الأعمال واصحاب ورؤساء مؤسسات اقتصادية تروإحت تبرعاتهم من ٤١٢ الف دولار الى ٥١ الف دولار .

وتضمنت هذه القائمة . .اسمين من نجوم السينما والفن . . احدهما هو المخرج والمنتج السينمائى الشهير «ستيفن سبيلبرج ، الذى تبرع ب ٢٠١ ألف دولار . . والاسم الثانى للنجمة الممثلة «بربارا سترايسند» والتى تبرعت بـ٦١ ألف دولار .

وكشفت القائمة الثانية التى تضم الذين دفعوا اقل من ٥٠ الف دولار . . اسماء الممثلين ريتشارد دريفوس . . وتوم هانكس ، وكانديس بيرجن . . وجين فوندا وزوجها تيد تيرنر (صاحب شبكة C.N.N) والكاتب المسرحى نيل سيمون الذى تبرع بـ ٣١,٥٠٠ الف دولار .

أما قائمة اسعار إيجار البيت الأبيض . . فقد كانت بالساعة أو اليوم . . بصورة أو بدون ! ! فلم تكن هذه الغرفة التاريخية لنوم الرئيس لنكولن هى المتاحة فقط . . بل كل قاعات وصالونات البيت الأبيض . . وحتى مكتب الرئيس كلينتون .

والقائمة كما يلى : خمسون الف دولار . . لجلسة قهوة مع الرئيس كلينتون وكبار رجال الدولة فى البيت الأبيض .

١٢,٥٠٠ ألف دولار حضور حفل عشاء ، وصورة مع الرئيس كلينتون .

ربع مليون دولار- لقضاء يوم كامل فى البيت الأبيض . . والاستمتاع بحمام السباحة ولعب التنس والجولف . . وحفل شواء فى الحديقة -وجولة فى المكتب البيضاوى . . وأخيراً حضور عرض سينمائى لفيلم «يوم الاستقلال» فى قاعة السينما بالبيت الأبيض .

الرئيس كلينتون قال : إنه لم يكن يعرف بما حدث . . وان موظفى إدارة البيت الأبيض هم المسئولون عن ترتيب هذه الزيارات . . وموظفو البيت الأبيض قالوا :

إن نائب الرئيس «آل جور» كان على علم بما يحدث.. وأن «هيلارى» زوجة كلينتون.. كانت توقع باسمها على بعض صور هذه الزيارات!!

الاخطر من كل هذا.. هو اختراق البيت الأبيض من دول أجنبية.. وبالتحديد الصين، والتى قيل إنها ساهمت بمليارين من الدولارات من أجل ضمان استمرار الامتيازات التجارية لها.

وانكرت حكومة الصين هذا الاتهام.

ولكن الصحافة الامريكية لم تعبا برد فعل حكومة الصين.. وواصلت اتهاماتها لرجال اعمال اسيويين سعوا للتبرع للحزب الديمقراطى من أجل توفير الحماية لمصالحهم التجارية!!

والنتيجة.. أن الكل يلعب لمصلحته أولاً..!!

وتصاعدت الأزمة.

وقبل الرئيس كلينتون انسحاب «انتونى ليك» من منصب مدير المخابرات المركزية الأمريكية (C.I.A) بعدما قيل عن تورطه مع رجل أعمال لبنانى لتسهيل مشروعه التجارى ودعم الإدارة الأمريكية له.. وكان «انتونى ليك» قد اختاره الرئيس كلينتون منذ ثلاثة أشهر لشغل هذا المنصب الهام.. ولكن هبت العاصفة المدمرة مع فتح ملفات تمويل الحملة الانتخابية.. واصطادته المعارضة من الحزب الجمهورى فى مجلس الشيوخ.. وخضع لتحقيقات متشعبة وعنيفة.. ولم يحتمل الرجل المفروض أن يتولى أخطر جهاز مخابرات فى العالم.. وكتب خطاب انسحابه من قبول هذا المنصب بعد أن نفد صبره على حد قوله.. وكتب للرئيس كلينتون يقول: «إنه لايريد أن يكون مثل دب يرقص فى سيرك سياسى.. فقد فقدت واشنطن صوابها وتحولت عملية استجوابه..إلى عملية وحشية تبعث على الغثيان»!!

وعلق كلينتون فى تصريح صدر من البيت الأبيض: «إن قرار انتونى ليك بالتراجع عن قبوله منصب مدير للمخابرات.. هو خسارة حقيقية للبلاد.. وخسارة لى شخصياً.

وأضاف كلينتون: « إن هذه القضية تكشف الطريقة التى تعالج بها كثيرا من الأمور فى العاصمة الفيدرالية.. وتحولت إجراءات سياسية عادية إلى مشادات.. ثم إلى انتقام سياسى ويجب أن تتوقف الآن حلقة التدمير السياسى » !!

وأصل الاتهام الموجه لأنتونى ليك.. الذى كان مرشحاً مديراً للمخابرات الأمريكية.. أنه كان رئيساً لمجلس الأمن القومى سهل لرجل الأعمال اللبنانى «روجيه تمرز» زيارة البيت الأبيض أكثر من مرة خلال عامى ٩٥و٩٦ فى مناسبات كان يحضرها الرئيس كلينتون.. وان رجل الأعمال اللبنانى تبرع بمبلغ ١٧٢ الف دولار للحزب الديمقراطى فى حملة انتخابات تجديد الرئاسة لكلينتون.. وإن هذا التبرع كان له علاقة بمساع للحصول على مساندة الإدارة الأمريكية لتمرير مشروع لبناء خط انابيب لنقل البترول من اذربيجان فى بحر قزوين عبر الأراضى التركية ومن خلال الشركة التى يملكها فى نيويورك ونفى رجل الاعمال اللبنانى «روجية تمرز» فى تصريح لجريدة «الحياة اللندنية».. أن يكون قد حادث الرئيس كلينتون بخصوص مشروع خط أنابيب البترول.. وبرر لقاءاته مع كلينتون انه كان يتحدث معه فى الشئون السياسية وخاصة موقف سوريا فى مفاوضات السلام(!!)

ولكنه لم ينف تبرعاته للحزب الديمقراطى والتى حددها بأنها لم تتجاوز ٢٠٠ الف دولار.. وقال تبريراً لذلك: « هذا المبلغ ليس شيئاً فى بلد كالولايات المتحدة، تقدم الشركات الكبيرة فيه تبرعات للأحزاب لتحصل على بطاقة دخول إلى البيت الأبيض، والمشاركة فى الأعياد والحفلات التى تقام فيه».

ثم أضاف ضاحكاً: لو اعتبرنا البيت الأبيض نادياً، أليس الدخول إليه أفضل من الدخول إلى ناد للجولف مثلاً؟!.. ففيه على الأقل يقابل المرء رؤساء ووزراء وشخصيات كبيرة تقرر سياسية العالم!!

وهذه هى أمريكا.

أمريكا المصالح.. وقانونها السائد: كم تدفع.. لكى تحصل على ماتريد!!

صيف أمريكى ..
ساخن جداً .. مزعج جداً !

إذا كنا نشكو من حرارة الجو والرطوبة عندنا.. إلا اننا أرحم من غيرنا بكثير.. لا أتحدث عن الكويت والسعودية ومنطقة الخليج.. ولكننى أتحدث عن أمريكا بجلالة قدرها!!

وها هى أقوى دولة فى العالم، التى استباحت بجيوشها وأسلحتها دولاً كثيرة وفرضت سيطرتها بأجهزة المخابرات المدربة، وساندويتشات الهامبورجر.. وأفلام العنف والدم ورعاة البقر.. هذه الدولة المفترية عجزت عن السيطرة على الجو.. هزمتها الطبيعة فى أكثر من موقع، أعاصير وفيضانات وثلوج.. فكل قوى هناك من هو أقوى منه!

وفى هذه الأيام.. فرضت الطبيعة عليها شبورة كثيفة من الرطوبة الخانقة مع إرتفاع درجات الحرارة لتتعدى الأربعين درجة! وقد عشت تلك الأيام ما بين واشنطن ونيويورك.. لأرى المارة فى الشوارع يخرجون من هدومهم.. رجالاً ونساء بشورتات وبأقل الملابس.. يلتقطون أنفاسهم بصعوبة وينتظرون انفراجة باب أحد المحلات أو الفنادق لتهب عليهم نسمات الهواء المكيف،يعبونها فى صدورهم ليواصلوا سيرهم فى الطريق يمسكون بزجاجات المياه يطفئون بها حرارة الجو وظمأ حلوقهم.. والغريب أنهم لا يكفون عن السير والتجول بين أرصفة الشوارع المزدحمة عن آخرها بالمارة..فعندهم إجازة طويلة من بعد أن لضموا- مثلنا- ثلاثة أيام قبل إجازة ٤ يوليو - عيد الاستقلال- وهكذا تواصلت الإجازة من نهاية عمل يوم الأربعاء إلى صباح الاثنين.. وهم لايحبون قضاء الإجازة فى بيوتهم.. وإنما يتفننون فى الخروج منها إلى أى مكان.. حتى ولو كان معسكراً على جبل، أو بيتا ريفياً، أو على الاقل الإقامة فى فندق بدون الواجبات المنزلية اليومية المعتادة.. وبين هذا وذاك تزدحم الطرق السريعة بصفوف السيارات الهاربة من المدينة.. أو التسكع فى الطرقات ما بين المحلات التجارية ودور السينما والمطاعم والحدائق العامة..والزحام لا آخر له.. أما حرارة الجو والرطوبة.. فلا تهم!!

وكان من سوء حظى أن يأتى موعد إقلاع طائرتى من مطار«دالاس» بواشنطن إلى مطار«جون كيندى بنيويورك» فى عز زحمة الإجازات:

مكانى على الطائرة محجوز بالفعل.. ولكن الوصول إلى «كاونتر» شركة الطيران لإنهاء إجراءات السفر لابد أن يمر عبر طابور طويل.. طويل من المسافرين امتد إلى أكثر من ساعة.. وما أن انتهيت من إجراءات السفر حتى فوجئت بعدها بدقائق بإلغاء رحلة الطيران لسوء الأحوال الجوية!! ما الحل؟عليك أن تتصرف بسرعة للخروج من هذا المأزق للحاق بطائرة مصر للطيران التى ستقلع بعد ثلاث ساعات من مطار نيويورك إلى القاهرة.. وجريت أبحث عن حقائبى.. وأبحث عن أية شركة طيران بديلة للطائرة التى ألغيت.. وتكرر الموقف العصبى الضاغط بين طوابير المسافرين.. لافاجأ بأن كل الطائرات الداخلية المسافرة من واشنطن إلى نيويورك.. إما أنها متأخرة عن مواعيدها أو تم إلغاؤها بالفعل لنفس السبب.. سوء الأحوال الجوية!

والطيران الداخلى فى أمريكا.. مشكلة يعانى منها الأمريكيون أنفسهم.. لعدم انضباط المواعيد.. وتأجيل السفر أو إلغاء إقلاع الطائرات لأى سبب.. والطائرات نفسها صغيرة الحجم تعمل بالمراوح ولامكان داخلها لحقائب اليد، والتى يجبرونك على أن تودعها مخزن الحقائب ببطن الطائرة.. وتنحشر فى مقعدك الضيق تنتظر الفرج قد يتأخر.. وقد لا يأتى!

وهذا ما حدث معى.. طال انتظارى لأربع ساعات حتى أعلنوا أخيراً عن أقلاع الطائرة إلى نيويورك. لتقطع المسافة فى ساعة ونصف الساعة.. وأصابنى الغضب والإحباط والتعب فبالتأكيد اقلعت طائرة مصر للطيران العائدة إلى القاهرة.. وعلى أن أدبر أحوالى للمبيت فى نيويورك.. وانتظار ما سيسفرعنه البحث فى اليوم التالى للعثور على مكان فى طائرة الغد إلى القاهرة، مغامرة غير معروف نتائجها فى عز زحمة الإجازات.. ولكن لا مفر!

وأنا لا أحب نيويورك.. اكره ضجيجها وزحامها وحوادث العنف والسرقة المتكررة.. وأشعر بالاختناق بين مبانى ناطحات السحاب الشاهقة والتى تتراص على جانبى الطرق، تكتم الأنفاس، وتشعرك بالضآلة والوحدة والرعب.

حملنى التاكسى فى الثانية صباحاً من مطار نيويورك إلى حى «مانهاتن» لأبحث عن فندق.. كانت الشوارع مازالت تصرخ بضجيج تجمعات الشباب الذين يحاولون اللهو بكل الطرق والأساليب، حتى ولو على حساب الآخرين..

صياح وشتائم وغناء وموسيقى فى خليط مزعج حاولت أن أشعل سيجارتى لأهدئ من توترى.. ولكننى فوجئت بسائق التاكسى ينظر لى فى فزع.. يطلب منى إخفاء السيجارة فوراً حتى لا أقع تحت طائلة القانون الذى يحرم التدخين فى الأماكن المغلقة!

يخافون من تلوث الهواء بدخان السجائر.. بينما التلوث فى كل مكان هنا.. بين أكياس القمامة المتراكمة كجبال صغيرة على نواصى الشوارع.

أوعوادم السيارات المجنونة.. أو التلوث السمعى بالضجيج الصاخب والات التنبيه المتواصلة فى سيارات الشرطة وكأنك فى ساحة معركة!

فى الصباح كانت الشوارع فى مدينة نيويورك.. قد امتلأت بالمارة رغم الحر والرطوبة.. فهذا يوم من أيام الإجازة.. وعلى النواصى اعتلى المهرجون الصناديق الفارغة يعلنون بالميكروفونات المحمولة عن بضائعهم.. حواة.. ودجالون ينعون نهاية العالم.. وباعة البضائع الرخيصة.. والمراهنون على أى شىء فى المسابقات المجنونة.

وشاهدت سباقاً حول من يستطيع أن يلتهم أكبر عدد من ساندويتشات «الهوت دوج» فى أقل زمان قياسى.. سباق مقرف ولكن الناس تهلل بجنون.. والفائز يضع يده على بطنه متألماً.. وقد امتلأ وجهه وقميصه ببقايا المسطردة المتساقطة من الأربعين ساندويتشاً التى أكلها فى سبع دقائق(!!) ثم يصرخ فى ألم.. إنه لن يضع أى ساندويتش«هوت دوج» فى فمه البقية الباقية من حياته!! هذا إذا كانت هناك بقية بالفعل!

ولكنه عالم مجنون.. ومارة يتسلون بجنون الآخرين!!

••

وفى أمريكا.. يعتبرون هذا الصيف.. صيفاً ساخناً جداً.. ليس مناخياً فقط ولكن سياسياً أيضاً.

فقد بدأ بالفعل الصراع على رئاسة الولايات المتحدة فى الإنتخابات القادمة التى ستجرى فى نوفمبر عام ٢٠٠٠ورغم انه باق من الزمن ١٥ شهراً على رئاسة كلينتون.. إلا أن الصراع احتد مؤخراً.. بين «آل جور» مرشح الحزب الديمقراطى.. وجورج بوش الابن، مرشح الحزب الجمهورى.. وكانت القضية

التى أشعلت الصراع السياسى منذ الآن . . هى قضية حرية تداول السلاح بين أيدى المواطنين العاديين، وخصوصاً بين طلبة المدارس بعد أن روع المجتمع الأمريكى بحوادث عنف وقتل بإطلاق الرصاص من مدافع ومسدسات يحملها صبية مراهقون .

وتقدمت حكومة كلينتون ومن ورائها الحزب الديمقراطى بتشريع قانون يحد من تداول الأسلحة . . وعرض الموضوع على مجلس النواب الأمريكى . . وكانت المفاجأة أن أغلبية المجلس (٢٠٠ صوت) رفضت إقرار المشروع . . بينما وقف ١٤٧ عضواً يؤيدون المشروع . . وكانت الأغلبية الرافضة يمثلها الحزب الجمهورى . . الذى وقف فيه المرشح للرئاسة جورج بوش الابن يبرر منطقه بأن الحرية الشخصية يجب الا تمسها أية قيود .

وكانت فرصة ذهبية لمرشح الحزب الديمقراطى «آلجور» لكى يخاطب الرأى العام الأمريكى قائلاً :«ماهذا العبث الذى تورط فيه مجلس النواب . . إننى شخصياً سوف أقود المعركة كرئيس للولايات المتحدة بضرورة تقييد حمل السلاح . . حماية لكم ولاطفالكم» .

وتصادف فى نفس الوقت أن اندلعت فى الصحافة الأمريكيةوعلى شاشات التليفزيون الجريمة البشعة التى شهدتها مدينة شيكاغو بولاية ألينوى . . حيث قام شاب عمره ٢١ عاماً يحمل سلاحاً أتوماتيكياً ويطارد كل الملونين من سكان المدينة . .وقتل بالفعل رجلاً أسود وآخر من أصل كورى، وجرح ستة من اليهود الأصوليين، كل هذا فى ليلة واحدة وفى صباح اليوم التالى واصل مهمته العنصرية بإطلاق الرصاص من سيارته المسرعة صوب رجل أسود . . ثم قام بالإعتداء على ستة طلبة منحدرين من أصول آسيوية ، أصاب أحدهم فى ساقه إصابة خطيرة . . ثم أنهى اليوم بقتل طالب صينى ! !

وقامت شرطة شيكاغو بمطاردة هذا القاتل المجنون الذى أطلقت عليه الصحافة لقب«سفاح شيكاغو» وتمكنت من قتله أثناء المطاردة .

وقبلها بأيام . . شهدت مدينة واشنطن حوادث شغب بين المراهقين، استخدمت فيها الأسلحة النارية ، وسقط ثلاث ضحايا بإصابات خطيرة . . ولما كانت واشنطن تمثل رمزاً سياسياً مهماً حيث مقر البيت الأبيض والكونجرس . .

فقد خرج عمدة المدينة مع قوات الشرطة لتمشيط الشوارع بحثاً بين التجمعات عن أية بوادر عنف وإطلاق رصاص.

وقضية حمل السلاح وسهولة البيع والشراء.. قضية يقف فيها الرأى العام موقفاً متشدداً.. بينما يحارب تجار الأسلحة للإبقاء عليها دون قيود.. فالأمر بالطبع يهم مصانع الأسلحة وكبار تجارها.. وهم يشكلون قوة ضغط هائلة داخل مجلس النواب.

ومازال الصراع فى بدايته بين «أل جور» مرشح الحزب الديمقراطى، وجورج بوش الابن مرشح الحزب الجمهورى.. وكل منهما يحشد قواه حتى تحين اللحظة الساخنة للمواجهة على مقعد رئاسة أمريكا.

استطاع «أل جو» أن يجمع ١٨,٥ مليون دولار لحملته الانتخابية.. بينما قفز بالرقم جورج بوش الابن حيث جمع ٣٦,٣ مليون دولار، وهو يعتبر أكبر مبلغ يتم جمعه حتى الآن فى تاريخ الانتخابات فى هذه المرحلة المبكرة.

وجورج بوش الابن يرفع شعار «التفاؤل بمستقبل أمريكا» ويكرر فى كل خطبة نبرة التفاؤل.. ويبدو أنها النغمة التى وجدت لها صدى كبيراً بين الأمريكيين فسجلت قياسات الرأى العام ارتفاع شعبيته عن منافسه «آل جور» الذى يحاول بكل جهده إبعاد نفسه عن مظلة كلينتون وأثار فضيحته مع مونيكا لوينسكى.

على الجانب الآخر.. تدخل «هيلارى كلينتون» حلبة الصراع بترشيح نفسها كعضو فى مجلس الشيوخ عن نيويورك.. ولأنها استعجلت الحصول على أصوات اليهود.. فقد خرجت لتعلن فى مؤتمر صحفى للحزب الديمقراطى.. انها ترى أن القدس هى العاصمة الأبدية لإسرائيل، وأنها تؤيد نقل السفارة الأمريكية إلى القدس!

تلك التصريحات التى أزعجت البيض الأبيض.. فخرج المتحدث الصحفى ليعلن أن تصريحات هيلارى هى رأيها الشخصى ولا تعبر عن السياسة الأمريكية التى تضع قضية «القدس» ضمن مباحثات الحل النهائى.

وعلى الرغم من هذه الصفعة لتهور «هيلارى» التى تحاول أن تبدو كشخصية سياسية لها وزنها.. إلا أن قياسات الرأى العام تشير إلى انخفاض شعبيتها.. وإن تماسكها أثناء فضيحة كلينتون لايبرر نجاحها فى الانتخابات!

ولأن أمريكا بلد العجائب.. فقد تناقلت الصحف وشاشات التليفزيون ذلك الحدث المثير الذى وقع مساء يوم ٣٠ يونيو الماضى.. فى مدينة «سياتل» القريبة من واشنطن.. حيث أقيم حفل عشاء خاص، شرط الحضور إليه أن يدفع الشخص مليون دولار مقابل تناول العشاء فقط.

صاحبة الدعوة لهذا العشاء العجيب هى زوجة «بيل جيتس» الذى يملك امبراطورية «مايكروسوفت» لبرامج الكومبيوتر.. ويعتبر أغنى أغنياء العالم حيث تقدر ثروته بما يزيد على ٩٣ مليار دولار(!!).

سبب الدعوة.. أن زوجة «بيل جيتس» تريد أن تجمع دعماً لجماعة «دوك» بولاية كارولينا الشمالية، حيث درست وتخرجت قبل أن تتزوج من «بيل جيتس».

وقد وجهت الدعوة لأغنى أغنياء العالم.. ولم يستجب لها إلا مائة شخص فقط، دفع كل واحد منهم بالفعل مليون دولار مقابل حفل العشاء فى قصرها الذى تقيم فيه مع «بيل جيتس» والمقام على مساحة ٥٥٧٤ متراً مربعاً وتكلف ٦٠ مليون دولار.. والمجهز بأحدث إليكترونيات القرن القادم!!

النكتة التى شغلت الصحافة الأمريكية، عن هذا الحفل المثير، أن الرئيس كلينتون بكل قوته كرئيس لأقوى دولة فى العالم، لا يستطيع الوفاء بثمن حضور هذا العشاء.. حيث إن راتبه الشهرى يصل إلى ٢٠ ألف دولار.. وبالتالى يحتاج إلى ٤ سنوات وشهرين ليمتلك المليون!!

••

الحلم بالثراء.. حلم متداول فى المجتمع الأمريكى مع فترة الانتعاش الاقتصادى الذى يمر به الآن.. الأغنياء يحلمون بزيادة الثراء.. والفقراء يحلمون بوظائف مجزية أكثر، أو الدخول فى لعبة أوراق اليانصيب والتى تعطى للفائز الأول مبلغاً يصل إلى ١٥ مليون دولار.

وقد نشرت مجلة «فوربس» الأمريكية المهتمة برصد حركة الثراء، تقريرها الأخير الذى ضم ٤٠٠ شخص يعتبرون من أغنى أغنياء أميركا، من بينهم ٢٥٠ بليونيراً. بزيادة ٦٠ شخصاً عن العام الماضى.. فى نفس الوقت الذى خرجت فيه مجلة «نيوزويك» الأمريكية عن وقارها المعتاد - ونشرت على غلاف عددها الأخير كاريكاتيراً لشخص مذهول يقول «كل واحد أصبح غنياً.. إلا أنا»، وضم هذا العدد ملفاً مثيراً عن الحلم بالثراء.. منها أحلام طلبة المدارس الذى قال ٧٧٪ من مجموع العينة، إنهم سيصبحون مليونيرات فى المستقبل.. بينما أكد ٤٣٪ من الذين سألتهم المجلة عن تحقيق حلم الثراء.. قالوا إن شركات الإنترنت هى جواز المرور للثروة.. بينما قال ٧١٪ منهم إنهم لا يجدون فرصتهم فى الثراء.

مع هذا الحلم الأمريكى.. يعيش المهاجرون إليها فى دوامة عمل لا تهدأ حتى يتوازن الدخل مع بعض أحلامهم.. بين هؤلاء تجد الأفارقة السود.. وتجد الأسبان الذين أصبحوا يشكلون قطاعاً كبيراً فى المجتمع الأمريكى (حوالى ٣٠ مليون شخص ينتمون لأصول أسبانية) حتى أصبحت هناك شكوك من مزاحمة اللغة الأسبانية للغة الإنجليزية السائدة.

فى نفس الوقت.. يعانى المهاجرون من مسألة الزواج.. والتوافق فيما بعد داخل البيت.. ولهذا خصصت بعض الولايات الأمريكية دورات صيفية لدراسة مسألة «التوافق.. ونجاح الزواج» لكسر الخوف الذى انتاب الشباب من فشل تجربة الزواج بعد عام أو عامين على الأكثر.. مما أدى إلى تراجع معدل الزواج بنسبة ٤٣٪ عن عام ٦٠.

••

مشغولون بدروس الزواج.

مشغولون بحلم الثراء.

مشغولون بحماية أنفسهم من مسدسات الصغار.

مشغولون بانتخابات الرئاسة.

مشغولون بالهوت دوج.. والستيك.. والآيس كريم.

وأنا بينهم ضائع فى نيويورك.. مشغول بالبحث عن مقعد فى طائرة تنقلنى إلى القاهرة.. إلى بيتى.. وأصدقائى.. وأحلامنا المتواضعة.

بلاد الأدب..
والين !

بعد ٢٢ ساعة تقريباً من الطيران والانتظار فى مطارات بانجوك. ومانيلا.. تستقبلك طوكيو بالانحناء.. والأدب والصوت الخفيض.. وكأنك أهم شخص فى العالم.. وهذا الإحساس بالأهمية، ليس له علاقة بوظيفتك أو مكانتك الاجتماعية، أو بما تحمله من نقود.. فواحد مثلى يتحسس جيبه طوال الوقت مرعوباً من ذوبان نقوده فى سرعة هائلة بسبب الارتفاع الرهيب فى الأسعار هنا.. واحد مثلى يفاجأ كل لحظة بمن ينحنى أمامى فى أدب ولطف ورقة بالغة ولابد ان تشعر بالخجل وتنحنى انت أيضاً له.

وحتى لو لم تتعود على ثنى الظهر فى كل لحظة.

فالانحناء هنا دليل الاحترام لإنسانيتك.. والاحترام سمة واضحة فى التعامل اليومى، وفى كل لحظة أو موقف.. يشترك فى هذا الجميع.. ابتداء من ضابط الجوازات فى المطار.. إلى سائق التاكسى.. إلى عاملة الأسانسير.. إلى أكبر ملياردير يابانى.. وإلى رئيس الوزراء.. وإلى الامبراطور شخصياً!

هنا بلاد الأدب .. والين!

وإذا كنا عرفنا الأدب اليابانى، وسعدنا به.. فقد لمسنا الين اليابانى واحترقنا به.. فالين اليابانى، عملة التداول، اصبحت الآن وفى هذه الأيام بالتحديد اقوى عملة عالمية.. صارعت الدولار وقضت عليه بالضربة المؤلمة.. واهتزت كل بورصات العالم لهذه المفاجأة وقال الخبراء إن الدولار انخفض امام الين إلى أقل سعر له منذ خمسين عاماً أى ما بعد الحرب العالمية الثانية.. ورغم كل الجهود الامريكية لدفع الحيوية والصمود فى سعر الدولار.. إلا أن الين القوى تشبث بموقعه وازدادت مكانته وقوته.. واستمر هبوط الدولار من ١٢٠ يناً إلى ٩٠ يناً.. إلى ٨٦ يناً قبل رحيلى بيوم.. وهذا الانخفاض المرعب يعنى مثلاً- مجرد مثل- ان فنجان القهوة كان يصل سعره إلى عشرة دولارات للفنجان الواحد.. الآن أصبح سعره يتجاوز الاثنى عشر دولارا.

وقوة الين اليابانى.. هى تلخيص واضح لقوة الاقتصاد اليابانى.. قوة العمل والإنتاج.. قوة البحث الدائم والمتطور فى علوم التكنولوجيا قوة المسئولية فى ضرورة تحقيق الأهداف.. وذكاء التخطيط للتنمية والاستثمار..

ينحنى لك فى لحظة.. ويعمل طوال اليوم لترتفع قامته أكثر وأكثر..

• الورقة الثانية •
لماذا رحلة اليابان؟

الشوارع المؤدية إلى القصر الامبراطورى بطوكيو. امتلأت بالاعلام المصرية ترحيباً واعتزازاً بقدوم رئيس مصر. الرئيس حسنى مبارك وتصدرت أحاديثه الصحفية والتليفزيونية أهم وسائل الإعلام فى اليابان قبل وصوله بيومين.

كانت وفود صحفية وتليفزيونية قد استعدت لهذا اللقاء.. بحوارات مع الرئيس أجريت فى القاهرة قبل السفر

وبعد وصوله بدقائق إلى طوكيو.. كانت ثلاث مجموعات أخرى صحفية وتليفزيونية فى انتظار إجراء الحوار معه.. ورغم رحلة الطيران الطويلة المرهقة، كان الرئيس مستعداً تماماً لأن يفتح قلبه وعقله لكل تساؤلات الإعلام اليابانى الذى ركز على هذه الزيارة بشكل مكثف. كانت اغلب التساؤلات الصحفية اليابانية تدور حول ثلاث نقاط:

موقف مصر من معاهدة حظر انتشار التسلح النووى- موقف مصر من قضية السلام- موقف مصر من الاستثمارات اليابانية خارج حدود اليابان.

وهذه النقاط الثلاث.. تلخص هدف زيارة الرئيس إلى اليابان.. وهو ما تم التعبير عنه بشكل آخر.. المشاركة من أجل السلام.. والمشاركة فى التنمية داخل مصر.

ومن المعروف أن اليابان عاشت تاريخاً طويلاً من الحروب والفتوحات والانتصارات.. والهزائم ايضاً.. ومنذ أكثر من مائة عام.. وبالتحديد فى عام

١٨٦٧ دخلت اليابان عصر ، الميجى ، كناية عن اسم امبراطور اليابان «ميجى» الذى تولى السلطة ، وحول دور الامبراطور من مجرد رمز للدولة إلى رائد للنهضة الحديثة . . حيث تم القضاء على الإقطاع كلية ، كما وضع دستور جديد استمده من الدساتير الأدبية . وقاد الامبراطور حملة قومية لإعادة تنظيم اليابان والاستفادة من كل تجارب النهضة والإصلاح خارج حدود اليابان ، بإرسال البعثات إلى الخارج ونقل النظم الجديدة . . وبدأت اليابان حروبها الخارجية وتزايدت النزعة العسكرية فى عصر الامبراطور التالى «هيروهيتو » حيث احتلت اليابان معظم جنوب شرق آسيا وجزر المحيط الهادى . ثم جاءت الضربة القاصمة فى أثناء الحرب العالمية الثانية . وهزيمة اليابان عسكرياً عام ٤٥ وإعلان استسلامها بعد إلقاء امريكا لقنبلتين ذريتين على هيروشيما وناجازاكى . . وما سببتهما من دمار مروع وضحايا بعشرات الألوف .

ومازالت اليابان إلى يومنا هذا . . تحيى ذكريات تلك الأيام المريرة فى احتفالات شعبية ورسمية فيها كثير من الذكريات والشجن والدموع . . وفيها ايضاً الكثير من الإعتزاز بقدرة اليابان على عبور تلك المأساة الإنسانية إلى افاق جديدة من النمو والقوة الاقتصادية حتى أصبحت اليابان اليوم . . هى العملاق الاقتصادى رقم واحد فى العالم . . تحقق ناتجاً قومياً يصل إلى ٤ الاف بليون دولار . وتحقق فائضاً تجارياً مذهلاً تجاوز المائة بليون دولار . .

ومع مجموع سكان اليابان الذى يصل إلى ١٢٥ مليون فرد . . وصل دخل الفرد الواحد سنويا إلى ٢٧ ألف دولار . . وهو ثانى أعلى دخل فرد فى العالم بعد سويسرا .

• الورقة الثالثة •
اليابان تتعلم من مصر

هذا النموذج الرائع والمذهل للقدرة والنمو الاقتصادى فى اليابان . . هو ما رأت مصر الاقتراب منه للاستفادة من التجربة . . والخبراء . . وجذب الاستثمارات .

فالمعروف ان استثمارات اليابان خارج حدودها تركزت أساساً فى قارتى آسيا وأمريكا الشمالية.. وتجاوزت رقم ٣٤ مليار دولار..

بينما لم يتجاوز نصيب مصر من هذه الاستثمارات اليابانية.. سوى ٧٥٠ مليون دولار خلال ما يزيد على أربعين عاماً.. وهو بالتأكيد رقم ضعيف ومن هنا كان أحد أهم أهداف رحلة مبارك إلى اليابان هو السعى إلى جذب مزيد من الاستثمارات اليابانية إلى مصر، بالإضافة إلى الاستفادة من الخبرة اليابانية فى التصنيع والتصدير.

فالدائرة لابد أن تكتمل حلقاتها.. فما لا يعرفه الكثيرون منا.. أن اليابان قد جاءت إلى مصر فى عهد محمد على للاستفادة من خبرة المصريين فى النهضة الإدارية.

فالتاريخ يحكى أنه فى فترة حكم الامبراطور «ميجى»- ما بعد عام ١٨٦٧- ارسل البعثات اليابانية إلى المانيا وإنجلترا للاستفادة من النظم العسكرية الحديثة.. وأرسل أيضاً البعثات إلى مصر للاستفادة من فنون الإدارة التى تميزت بها مصر فى ذلك الوقت.

وهاهى الاحوال تتغير.. وليس هناك من حرج أن تطلب مصر الآن الاستفادة من الخبرة اليابانية.

وبعد مباحثات مكثفة مع المسئولين فى الحكومة اليابانية، ومباحثات أخرى أجراها الوفد الرسمى المرافق للرئيس مع نظرائهم من المسئولين اليابانيين ورجال الصناعة والأعمال. أعلن الخبر الهام: إن الحكومة اليابانية تضمن الاستثمار فى مصر.. وتضمن لرجال الصناعة اليابانيين مشاركتهم فى المشاريع الإنتاجية بمصر..

ومعنى هذا الخبر..انه يفتح الباب بطمأنينة لتدفق الاستثمار اليابانى فى مصر..

قد يحتاج الأمر إلى بعض الوقت لطبيعة المستثمر اليابانى- وهى طبيعة عامة فى الشعب اليابانى تتصف بالحذر والدقة والدراسة الكاملة لموقع القدم فى أى

مكان جديد أو أى مشروع جديد.. ولكن المستثمر الذكى- وهى طبيعة أيضاً فى الشعب اليابانى- لايفوت أبداً فرصة يجدها مناسبة للانطلاق والانتشار.

المهم الآن. أن الطريق بين اليابان ومصر قد انفتح بلا عوائق أو مخاوف!

• الورقة الرابعة •
ليست صفقة من جانب واحد

فى البرنامج الرسمى لزيارة الرئيس. غداء عمل مع رجال الأعمال والصناعة فى اليابان.

ولأول مرة فى حياتى.. أشهد هذا التجمع الهائل من عناصر القوة الاقتصادية اليابانية.. هؤلاء هم أصحاب المؤسسات الضخمة وكباررجال الأعمال.. فى تواضع شديد وانحناءات يتبادلون التحية مع ضيوف هذا اللقاء من رجال الأعمال المصريين، ويتبادلون بطاقات التعارف، وتدور أحاديثهم بصوت هامس يستكشفون ما يحمله الضيوف المصريون من أفكار ومشروعات.

هنا.. فى مبنى «طوكيو كايكان».. وفى القاعة الوردية.. تناثرت الموائد المنفصلة.. كل مائدة يجلس عليها ثمانية أشخاص تم توزيعهم بدقة متناهية لضمان امتزاج رجال الأعمال اليابانيين مع الضيوف القادمين من مصر..

على المائدة التى جلست عليها تأملت بطاقات التعارف التى قدمها لى الجالسون حولى من رجال الأعمال اليابانيين.. أصحاب مؤسسات.. ورؤساء شركات.. واكتشفت فى تلك اللحظة اننى أجلس على مائدة وزنها مليارات الدولارات.. ولكن لا أحد منهم يتفاخر أو يتعالى.. منتهى التواضع.. ومنتهى الدقة فى التعبير عن أفكارهم..

ويدخل الرئيس مبارك ومعه أعضاء الوفد الرسمى المرافق.. يقف الجميع احتراماً وتقديراً.. يصفقون فى حماس.

إنهم يعرفون جيداً الرئيس مبارك كرجل سلام ورجل السياسة الحكيمة..
ويعرفون جيداً تاريخ مصر.. ودورها الرائد فى المنطقة العربية.

ويتقدم رئيس غرفة التجارة والصناعة اليابانية «كويساكيو أنيبا» ليلقى كلمة.. وإذ بنا أمام قطعة أدبية وسياسية من المقام الرفيع.. وبعد أن يعرفنا بأسماء المؤسسات والمجموعات الاقتصادية العملاقة(ست مؤسسات) التى حضرت هذا اللقاء يتوجه بالشكر للرئيس مبارك ولشعب مصر على المساهمة الكريمة التى قدمتها مصر لضحايا الزلزال الأخير فى اليابان (شهر يناير الماضى).. ويقول (إننى لا أستطيع أن اعبر عن مدى ما حققته هذه المساهمة الإنسانية فى دفع الأمل والشجاعة عند ضحايا الزلزال)

وبلغة عذبة راقية يعدد دور مصر التاريخى.. وإلى وقتنا الراهن - وعلى حد تعبيره- وهى تقوم بمهمتها الحساسة والدقيقة كزعيمة للعالم العربى.. وجهودها النبيلة التى قادت إلى التقدم التاريخى فى عملية السلام بالشرق الأوسط.. ثم يدخل خطابه إلى منطقة الاقتصاد والصناعة مؤيداً اتجاه الاستثمار اليابانى إلى مصر.. وزيادة حجم الاستثمارات مشيراً إلى أهمية السوق المصرية ومنها الاتجاه إلى أسواق الشرق الأوسط وافريقيا وأوروبا، ومؤكدا ان مصر هى أنسب مكان للاستثمار اليابانى.

يأتى هذا الصوت من داخل اليابان.. ومن داخل قلعة الصناعة والتجارة اليابانية.. وهو كلام ليس للاستهلاك الوقتى.. فهم لم يتعودوا هذا الأسلوب.. وإنما كلام دقيق يعطى مؤشرات للمستقبل.

ويقف الرئيس مبارك ليرد التحية.. مشيراً إلى أن المصريين ينظرون إلى اليابان نظرة كلها إعجاب وإحترام.. فاليابان شعب نجح فى أن يبنى تقدمه دون أن يفقد أصالته وقيمه.

وبصراحته المعهودة يقول: إن هدفنا مزيد من التعاون الاقتصادى معكم.. وهدفنا ليس عقد صفقة من جانب واحد، ولكن تعاوناً يقوم على الفائدة المشتركة بحيث يأخذ كل جانب مثلما يعطى.

ويشرح الرئيس.. النجاحات التى تحققت أخيراً فى الاقتصاد المصرى.. ومدى الأمان فى مصر حاليا.. والإمكانية المؤكدة بأن السوق المصرية نافذة جيدة لأسواق الشرق الأوسط، وافريقيا.

واختتم كلمته بقوله: «إننا نثق بأن مباحثاتنا هنا اثناء هذه الزيارة.. ستفتح افاقاً جديدة لعلاقاتنا معاً».

وقد تحقق هذا بالفعل..

فقد اسفرت المباحثات عن عدد من مشروعات التنمية داخل مصر، والأهم هو الاتفاق من الجانب اليابانى على المشاركة فى إنشاء الجسر العملاق فوق قناة السويس، وهو المشروع الذى يربط بين آسيا وأفريقيا.. ويجعل من منطقة سيناء عامل جذب للعمل والمعيشة، مما يسحب من الازدحام السكانى على ضفاف النيل.. ويتحقق الحلم بإعادة توزيع سكان مصر، وخلق مناطق جديدة للعمل، بالاضافة إلى أن هذا المشروع ستستفيد منه كل دول الشرق الأوسط كشريان حيوى للربط والمواصلات وتصل تكلفة هذا المشروع العملاق إلى ٢٥٠ مليون دولار..

وتعالوا ننزل الى الشارع اليابانى ونقرأ جرائدهم.. ونسمع حكاياتهم.

شباب بالكمامة..
وفتاة بالكيمونو..

(الحياة فى نظام دقيق) هو أفضل تعبير من الممكن أن تقوله بعد زيارة طالت أو قصرت إلى اليابان.. فأنت تدخل دائرة النظام والدقة من لحظة وصولك.. إلى تعاملك اليومى.. وما تلمسه يداك وما تراه عيناك.. وما يستقر فى وجدانك..

ولا يمكن أن تفرض عليهم شيئاً لم يدرسوه جيداً ويقتنعوا به تماماً.. ليس اقتناعاً على المستوى الفردى.. ولكن اقتناعاً جماعياً، محسوباً بدقة.

وهذا النظام والدقة.. ليس مضيعة للوقت، وإنما أفضل استثمار للوقت.. وليس معوقاً للعمل أو الانتاج.. وإنما أسلوب حياة تعودوا عليه.. وحققوا به هذا الإنجاز المذهل والضخم على مستوى العالم، وأصبحوا أكبر قوة اقتصادية!!

فالنظام والدقة هما الاعتزاز والحماية والضمان للتفوق.

• الورقة الأولى •
وتذكرت هذا المخرج العبقرى

فى الفندق الذى اقمت به- وهو من أكبر فنادق طوكيو- توقفت طويلاً أمام حفلات الزفاف الصباحية أحياناً تبدأ من الثامنة صباحاً واحتشاد من المدعوين والأقارب اغلبهم من النساء والأطفال.. وأغلبهم يرتدى «الكيمونو»- الزى اليابانى التقليدى بالوانه الصريحة والمزركشة بالرسوم والتطريز باشكال يابانية- وحفيف الصنادل الخشبية التقليدية، والشربات البيضاء.. تتجاور مع دقات الكعوب والملابس العصرية..

وهذا الامتزاج بين القديم والمعاصر.. هو إحدى السمات الهامة للشخصية اليابانية.. إنهم لايتمردون على الجذور.. وإنما يعتزون بأصالتهم.. والجديد المعاصر يدخل حياتهم فى تناسق وهارمونى وبدون فوضى أو إزعاج.

نفس الشىء يحدث فى تخطيط المدينة.. فهناك أحياء كاملة مازالت تحتفظ بعبق الماضى والموروثات التقليدية فى فن المعمار.. والحدائق اليابانية الشهيرة.. وفوانيس الإضاءة ذات الرسوم الشعبية المأخوذة من التراث القديم..

وهناك أحياء عصرية تتناطح فيها الابراج المعمارية بنوافذها المعدنية والتى يصرون على إضاءتها ليلاً. فتبدو وكأنها شواهق من نور مع تعدد الكبارى العلوية والانفاق فى شبكة مرسومة وكأنها إحدى اللوحات التجريدية.. ليس من باب التغريب.. ولكن من باب الاستفادة من كل المساحات المتاحة سواء للبناء أو المواصلات..

وهذا الاتجاه المعاصر.. يواجه دائما بانتقادات من الذين يتمسكون بالروح اليابانية القديمة.. ودعواهم دائماً بالاحتجاج والرفض ضد كل مَنْ يشكل اختراقاً للثقافة والفن والسلوك الياباني الأصيل.

وتذكرت فيلسوف وفنان السينما اليابانية، المخرج «اكيرا كيراساوا»، الذى جند حياته وفنه للتعبير عن الروح والثقافة اليابانية الأصيلة.. ثم صدمته باختراق هذه الروح بتأثيرات غربية.. فحاول الانتحار احتجاجاً بتمزيق شرايين يده.. ثم مواصلته العمل فى إصرار وشجاعة بعد أن استرد ثقته من خلال زملائه وعشاق فنه، الذين التفوا حوله يشجعونه ويدفعونه لمواصلة رسالته.. ولم يخب ظنهم.. واعطى بعد ذلك أفلاماً هامة صفق لها العالم وانحنى لها تقديراً واعتزازاً كل نقاد وعشاق السينما.

وظل المخرج «كيرا ساوا» يعمل بروح المقاتل من أجل الثقافة اليابانية الأصيلة.. رغم أن عمره اقترب وقتها من السادسة والثمانين عاماً.

تذكرت فيلمه الشهير «أحلام» الذى قدمه منذ خمس سنوات يحكى فيه خلاصة تجربته فى الحياة فيما يشبه الملحمة السينمائية، شديدة العذوبة والنبل والجمال، وخلاصة التجربة يمكن التعبير عنها«فن الحياة كما يجب أن يكون.. واستقبال نهاية الرحلة بالموت فى فرح»..

خلاصة التجربة فى ثمانى لوحات سينمائية.. كل لوحة «حلم» مستقل له عنوان.. وكل عنوان يوحى بالمعنى.. وكانت المعانى هى: (الخوف ملعون- المغامرة مطلوبة- المقاومة ضرورة- الحروب غباء وإهدار للإنسانية- الفن معاناة وجمال- الاستخدام السيئ للعلوم هو الجحيم والموت البطىء بالإشعاع والتلوث- ثم الاحتفال بالحياة والحرص على الطبيعة نظيفة ونقية).

تذكرت هذا الفيلم ومخرجه العبقرى.. وأنا التقى فى شوارع طوكيو بشباب صغير السن يضع الكمامات على أنفه احتراساً من التلوث.. كانت المفاجأة أن الشباب فقط هم الذين يضعون هذه الكمامات سواء فتيان أو فتيات.. لم أشاهد عجائز بالكمامات.. ولكننى شاهدت عجائز أصحاء.. القامة مشدودة ولا ترهل ولا كروش.. والعمر أحياناً يتجاوز الثمانين عاماً..(وفى اليابان أكبر نسبة من المعمرين).

معنى هذا أن العجائز عاشوا حياتهم أصحاء قبل أن تنتشر عوامل التلوث.. بينما الشبان الذين يعيشون العصر الحديث بكل أمراضه هم الخائفون على أنفسهم.. والخائفون من المستقبل !!

تذكرت هذا الفيلم ومخرجه العبقرى.. وأنا أشترى تفاحة واحدة فى حجم البطيخة الصغيرة.. أدهشنى حجمها.. ولم أستطعم مذاقها.. فهى نتاج الكيماويات والتهجين وكل ما هو غير طبيعى فى الأرض والزرع. تذكرت هذا الفيلم وأنا أقرأ جرائدهم.

• الورقة الثانية •
العيون فقط.. تتحرك!

فى تحقيق موسع نشرته الجريدة اليابانية «مينشى ديلى نيوز».والتى تصدر بالإنجليزية.. قالوا: إن الأبحاث والدراسات الجامعية أثبتت أن كثيراً من الأطفال والشباب الآن فى اليابان يعانون من ضعف النظر بسبب طول الوقت الذى يجلس فيه اليابانى أمام شاشات الكومبيوتر.. ابتداء من العاب الكومبيوتر بالنسبة للأطفال والمراهقين.. إلى العمل على الكومبيوتر بالنسبة للشباب.

وأوردوا إحصائية لوزارة التعليم اليابانية تؤكد هذه الظاهرة..حيث أن ٤٩٪ من طلبة المدارس الإعدادية، و٦٢٪ من طلبة الثانوى يعانون من ضعف البصر.

وقالوا فى هذه الإحصائية : إن ٣٥٪ من طلبة الثانوى أصبحوا يستخدمون النظارات الطبية.. مع أن النسبة كانت منذ عشر سنوات مضت.. لا تتجاوز ١٥٪.. ومعنى هذا كما قال أحد أساتذة جامعة طوكيو، والمتخصصين فى أمراض العيون (قريباً سيكون مائة مليون من الشعب اليابانى - تعدادهم ١٢٥ مليونا - مصابين بضعف النظر.. ونحن نلاحق بابحاثنا تدارك هذا الخطر)

وقال أستاذ جامعى آخر : إن الجلوس أمام شاشات الكومبيوتر، يجعل الجسم فى حالة تيبس.. لاشىء يتحرك سوى حدقة العين.. وبالإضافة إلى ضعف النظر، فهناك امراض الجلوس لفترات طويلة كآلام العنق والأكتاف.

إنها ضريبة التقدم التكنولوجى.. واكتساح عصر الكومبيوتر.. وتعدد استخداماته فى المدارس.. وفى المصانع.. وفى البنوك.. وفى كافة مجالات العمل.. وحتى فى أوقات الفراغ.. حيث تنتشر محلات العاب الفيديو فى جميع شوارع طوكيو..

والداخل إلى هذه المحلات.. يفاجأ بالعدد الهائل من شاشات الكومبيوتر التى تتحرك عليها العاب مختلفة.. وتصطف على الجانبين وفى وسط المحل.. وأمام كل شاشة يجلس صبى أو شاب يلعب فى استغراق شديد.. واللعب فى هذه المحلات العامة محرم فيها النقود.. فليست هى ألعاب للقمار.. وإنما العاب للتسلية وقضاء وقت الفراغ.. وربما تكون الجائزة باكو بسكويت أو شيكولاته!!

وقال الباحثون : إنه فى المدن والقرى التى لا تنتشر فيها العاب الفيديو.. ثبت أن الأطفال والشباب نظرهم اقوى واوضح.. ولا يعانون من اية متاعب فى العيون!

أى أن العودة للطبيعة هى الحل.. ولكن من يستطيع أن يلتزم بالحياة الطبيعية مع المنافسة على الإنتاج.. والإستغراق الشديد فى العمل.

• الورقة الثالثة •

١٢٠ كتاباً جديداً كل يوم

لا يكفى أن تتوقف بالدهشة.. أمام هذا الطوفان البشرى الذى يغمر شوارع طوكيو منذ السادسة والنصف صباحاً.. والجميع يخرجون من منازلهم وينطلقون فى حركة آلية سريعة.. ورغم اتساع الأرصفة. يتلاصق الجميع، ويدفعون بعضهم إلى إتجاه واحد.. وكأنهم شلال متدفق يصب فى محطات مترو الانفاق والأوتوبيسات العامة، لكى يكونوا فى مقر أعمالهم فى الثامنة تماماً.

صامتون غالباً.. لايثرثرون كثيراً.. وما أن يستقروا على مقاعد المترو أو الأوتوبيس ليخرج كل منهم جريدة الصباح أو كتاباً ليقرأ.

هنا أيضاً.. العيون تتحرك على الصفحات فى توحد كامل.

وفى أغرب مشكلة تناولتها الصحف اليابانية مؤخراً.. إن دور النشر فى اليابان تقدم يومياً ١٢٠ كتاباً جديداً.. وهذا دليل حيوية.. ولكن المشكلة أن المكتبات العامة أصبحت تواجه مأزق توفير المساحة لعرض الكتب الجديدة، فليس بالمستطاع استقبال ١٢٠ كتاباً جديداً كل يوم، ولو فرض أن كل مكتبة تأخذ خمس نسخ من كل كتاب جديد.. فهذا معناه بحسبة بسيطة ٦٠٠ نسخة يومياً.. أى أن المطلوب مكان يتسع للتخزين وللعرض، وهذا مستحيل فى ظل ظروف الإيجارات الباهظة للمحلات.. ومن هنا اقترح بعض أصحاب المكتبات الا يأخذوا غير نسخة واحدة من كل كتاب جديد.. ومازالت المناقشة مفتوحة بين دور النشر والمكتبات.

ونسبة المرتجع من الكتب لا تزيد على ٣٠٪.. وهو رقم يدل على القدرة الفائقة فى شراء الكتب.. واستيعابها!!

• الورقة الرابعة •
السيارات اليابانية من أمريكا إلى أوروبا

مع ارتفاع سعر «الين» الياباني، وانخفاض قيمة الدولار.. هللت بعض الأوساط الأمريكية بارتفاع سعر الين، سترتفع أسعار السلع الواردة من اليابان.. وبالتالي ستنخفض القوة الشرائية لها.. وسيتجه الأمريكيون إلى شراء المنتجات الأمريكية الأرخص.. وبالتحديد في سوق السيارات.

فالمعروف أن السيارات اليابانية أصبحت تحتل السوق الأمريكية ولكن الآن على حد تعبير رجل أعمال أمريكي «سوف أتعود على قيادة الكاديلاك.. صحيح أن السيارة اليابانية أكثر راحة وأرخص سعراً.. ولكن مع ارتفاع سعر الين افتقدت السيارة اليابانية ميزة السعر الرخيص.. وسألجأ إلى السيارة الأمريكية.

مثل هذه النغمة التى ترددت مؤخراً.. انعكست على الفور فى خسائر لحقت بمصانع سيارات «نيسان» اليابانية.. بينما اسرعت مصانع «تويوتا» للإعلان انها ستزيد من طاقة إنتاج مصانعها فى بريطانيا إلى الضعف، لتصل إلى مائتى الف سيارة سنوياً.. لتغطى احتياجات بريطانيا، وتنافس فرنسا والمانيا.

أى أنه إذا تأثرت سوق السيارات اليابانية في أمريكا.. فالبديل هو مضاعفة الإنتاج اليابانى فى أوروبا.. وهم هنا لا يعتمدون على تصدير السيارات.. ولكن صناعتها كاملة داخل دول أخرى مستفيدين من فرق سعر العملة.. وايضاً مستفيدين بتشغيل العمالة اليابانية خارج حدود اليابان وهو نفس الأسلوب الذى يتبعونه فى تصنيع الاجهزة الإليكترونية من تليفزيون وفيديو وكومبيوتر وكاست وكاميرات)، داخل دول جنوب شرق آسيا للاستفادة من العمالة الأرخص سعراً، مع الاحتفاظ بكافة المواصفات اليابانية للسلعة.

وهذا الذكاء التجارى، ودقة التخطيط.. هو ما يحتفظ لليابان بقوتها الاقتصادية.

• الورقة الخامسة •
اخرجوا فى الاجازات!

الإدارة اليابانية فى المؤسسات والمصانع لاتعتمد على القرارات التى يصدرها الرؤساء والمديرون.. ولكن فلسفة الإدارة تقوم على المشاركة فى الرأى والقرار من كل العاملين.. حيث تطرح المشكلة على الجميع.. بكل أبعادها وتفاصيلها وأرقامها.. ويطالب من الجميع أن يعرضوا أفكارهم واراءهم.. وكل رأى مهما كان صاحبه له احترامه وتقديره.

وهذه القيادة الجماعية، وإحساس كل موظف أو عامل باهميته..هو الذى يخلق الانتماء للعمل.. ويشعر كل منهم انه يعمل ويجتهد ويبتكر ويبنى فى مصنعه الخاص.. ومن هنا قالوا إن العامل اليابانى.. يعتبر العمل هو بيته الثانى.

وقالوا أيضاً: إن الزوجة اليابانية تردد دائماً: «إن زوجى مشغول فى العمل.. وعندما يعود إلى المنزل فهو غائب»!!

ومن حسن حظ الأزواج.. أن المرأة نزلت إلى العمل بكل قوتها..لتساهم فى مصاريف الحياة الزوجية وشراء ما تحتاجه من اموالها.. أى انها هى الأخرى تعود إلى المنزل فى حالة إنهاك.. وغياب عن زوجها ومن هنا كانت الإجازات.. هى فترة الراحة الإجبارية التى اصرت عليها الحكومة اليابانية لكى يعود الاتصال والحوار الإنسانى بين الازواج.. والأهل والاقارب.. وشجعت الحكومة اليابانية.. السياحة الداخلية والخارجية.. وكأنها تقول لهم اخرجوا.. وانطلقوا..

وتمتعوا بالحياة.. لتعودوا إلى أعمالكم فى حيوية ونشاط.وحرصت الإدارة اليابانية على إقامة المهرجانات الشعبية على خريطة المدن اليابانية.. وأغلب هذه المهرجانات مستمدة من أساطير قديمة يعاد احياؤها فى احتفالات مبهجة يشارك فيها الجميع بالرقص والغناء والموسيقى والملابس والألعاب التقليدية.

فالدعوة مفتوحة للترفيه.. فمن يعمل كثيراً، من حقه أن يرفّه عن نفسه.. حتى تدور عجلة الايام بلا ملل أو اكتئاب.

وتصادف اثناء إقامتى فى طوكيو.. أن حلت الدورة الجديدة لرياضة المصارعة اليابانية المعروفة باسم (السومو).. وغطى التليفزيون اليابانى هذا الاحتفال الشعبى من داخل استاد ضخم احتشد المتفرجون فيه (شباباً وعجائز) حول حلقة المصارعة فى اهتمام وشوق بالغين.. يترقبون نجومهم من ابطال المصارعة وما تسفر عنه مبارياتهم وفى الحقيقة.. فوجئت بأحجام ابطال هذه المصارعة.. فالواحد منهم لا يقل وزنه عن ١٥٠ كيلو جراماً، والشحوم على جسده تتهدل فى الصدر والبطن.. وقبضة يده فى حجم قدم الفيل.. ولهم طقوس خاصة قبل اللعب.. ينحنون لبعضهم.. ثم يركعون على الأرض فى تحفز.. وانتظار أن يبدأ أحدهما اللعب.. وقد لا يبدأ اللعب.. فتتكرر نفس الطقوس حتى يهم أحدهما بتسديد لكمة للآخر تستتبعها محاولات لاسقاطه على الأرض.. ومع كل سقوط.. يخرج اللاعبان.. ليظهر لاعبان جديدان.. وتتكرر نفس الطقوس.

وهذه الرياضة (السومو) يرجع تاريخها إلى ألفى عام وربما أكثر ولا أحد يعرف بداياتها الحقيقية وبدايات الأسلوب التقليدى المتبع فى لعبها.. وإن كان معروفاً أن التليفزيون اليابانى هو الذى أحيا هذه الرياضة بإذاعة مبارياتها كاملة.. ويتابعها اليوم كل اليابانيين.. وتقام ست دورات للسومو كل عام تستمر كل منها ١٥ يوماً فى طوكيو والمدن الكبرى الأخرى.. ويقضى مصارعو السومو المحترفون بقية العام فى جولات فى أنحاء البلاد.

• الورقة الأخيرة •
أغلى شارع فى العالم!!

يحتل شارع «جينزا» مكانة خاصة فى قلب طوكيو.. فهو شارع رجال الأعمال.. والبنوك.. وأشهر المحلات التجارية.

اضواؤه تسطع طوال الليل.. وواجهات المحلات مضاءة.. لمن يريد أن يتفرج.. مجرد فرجة.. فالأسعار هنا فلكية.. الفستان يصل ثمنه لأكثر من مائة ألف دولار.. وأرخص حذاء ثمنه خمسة آلاف دولار!!

إنه أغلى شارع فى العالم.

ولكن الفرجة حق للجميع.. ومجاناً.. ولهذا اغلقت إدارة مرور طوكيو هذا الشارع عن مرور السيارات يومى السبت والاحد.. حتى يتمكن كل اليابانيين من السير فيه.

ويتحول شارع «جينزا» فى هذين اليومين.. إلى مزار حاشد بالبشر.. وكأنك داخل استاد ضخم ممتلئ عن آخره بالمتفرجين.

ولم انطق عندما قال لى مرافقى اليابانى: إن سعر المتر المربع الواحد من هذا الشارع وصل ثمنه إلى ربع مليون دولار!!

ربع مليون دولار للمتر الواحد.. غير تكاليف الديكورات والتأثيث والمعروضات.. وحاولت أن أحسب كم يتكلف إقامة متجر واحد هنا.. فأصبت بالصداع..

ولكن هذه هى طوكيو.. بلد العمل.. والتقاليد.. والغرائب!!

من فلاحى الأمس..
إلى رجال أعمال اليوم

فى شوارع بكين.. تحددت فى ذاكرتى معالم الصورة لحياة عصرية بدون بهرجة.. بدون ضجيج لافتات دعاية زاعقة الأضواء والألوان.

شوارع نظيفة متسعة تحرسها الاشجار على الجانبين.

أمواج متدفقة من راكبى الدرجات تعبر جانبى الطريق فى إيقاع سريع متواصل، لا تسمع له صوتاً وفى ساعات الذروة تتلاحم امواج راكبى الدراجات فى خطوط غزيرة متواصلة وكأنهم برواز بشرى دقيق التكوين والنظام، يلف جوانب الطرق التى ازدحمت هى الأخرى بطوابير السيارات الصينية الحديثة الصنع.. ولا صوت .. ولا كلاكس اعتراض أو ملل.

تلاميذ مدارس باليونيفورم العصرى.. نساء بالمينى جيب. شباب بالجينز.. شيوخ وعجائز على الدراجات يحملون حقائب العمل، أو مقاعد اطفالهم الصغار يتحركون فى أمان كامل، واحترام واضح.

الاحترام.. ملمح قوى فى تفاصيل الصورة.

احترام الصغار للكبار.. احترام الطريق العام.. احترام المال العام.. احترام الخصوصية، بدون خروج على التقاليد والعادات الشرقية.. فلا قبلات أو احضان أو ميوعة أو جنون تقاليع كما نراها فى شوارع الغرب الأوروبى أو الأمريكى.

على جانبى الشوارع الرئيسية.. محلات تجارية متواضعة الشكل الخارجى حتى تكاد تستغنى عن الفاترينات المبهرة والجذابة.. ربما لأنهم واثقون من انفسهم.. وليسوا مضطرين لزغللة العيون وخداع الأضواء والديكورات.

متأكدون أنهم يقدمون البضاعة الأجود والأرخص سعراً.

متأكدون أن من حق المواطن الصينى أن يجنى ثمار جهده. أن يمتلك الأجهزة العصرية.. ويشترى الأزياء العصرية كل حسب إمكانياته وبدون حرمان.

ومتأكدون أيضاً أن أى زائر أجنبى لبلادهم يستطيع أن يملأ حقائبه بالمصنوعات الصينية.. بأقل قدر من الدولارات(وصل عدد السائحين إلى الصين فى عام ٩٣.. إلى ما يزيد على ١٧ مليون سائح)!

متأكدون.. واثقون من انفسهم تماماً.

ملامح الصورة تتعدد.. ولكن يمكن أن تتلخص فى عنوان واضح وصريح :(العمل الجاد)

مجتمع يعرف قيمة العمل.. كهدف وحيد وأصيل.. لحياة أفضل.

• الحلم الآسيوى •

لسنوات طويلة عشنا، «الحلم الأمريكى» الذى روجته الأفلام والمسلسلات ووسائل الدعاية والإعلام المبرمجة لتثبيت «الحلم» فى اذهاننا.. حتى أصبحنا مدمنين له.. ولانرى سواه.. وكأن العالم توقف عند أمريكا.. واختفت وانزوت كل مساحات الأرض الأخرى. وتجارب الشعوب الأخرى.. والأحلام الأخرى.. والإرادة الأخرى.

وتمردت الصين على هذا الانزواء.. كما تمردت من قبلها اليابان..

وتقدمتا إلى عمق الصورة.. سلاحهما اقتصاد قوى.. ومن خلفهما رصيد قوى من العلماء والباحثين والمبتكرين.. ورصيد أكبر من العمل والخطط الطموحة.. والتحدى العظيم لتحقيقها فى أسرع وقت.

فسباق العلماء والمبتكرين.. لا يهدأ.. ولا يعترف بالوقت الضائع. وربما شهرة اليابان تقدمت عن الصين.. وفى نفس الوقت الذى كانت فيه الصين تحشد كل قواها لتسابق الجميع، وتفاجئهم بابتكارات وإنجازات علمية جديدة.. واقتصاد قوى ينمو ويتزايد عاما بعد عام.. وأيضاً سينما متميزة لها مذاق فكرى وفنى خاص، اصبح يخطف الانتباه، ويحصد أهم الجوائز الكبرى فى المهرجانات العالمية.

فالاقتصاد القوى، يجب أن يسانده فن قوى..

فن قادر على الانتشار فى العالم.. له قوة الجاذبية والتأثير لكى يقدم بطاقة التعارف للجميع.

ونجحت السينما الصينية فى أن تقدم بطاقة التعارف للوجه الجديد للصين.. الجرأة والتجديد فى التناول الفنى.. وأيضاً الجرأة فى اقتحام التابوهات أو المقدسات السياسية والإجتماعية.

نفس الأسلحة التى تحرك وانتشر بها «الحلم الأمريكى»

وها هو «الحلم الآسيوى» يقدم البديل.

بديل لا يعتمد على العنف والدم وقوة السلاح.. وإنما يعتمد على الإنسان وجذوره الروحية والاخلاقية، والقوة الكامنة فى أعماقه لمقاومة الضعف والانهيار.

أى أن البديل هنا.. هو البديل الأخلاقى.

ومن هنا رحب العالم بهذا الفن.. ربما لأنه كان ينتظره ويشتاق إليه منذ زمن طويل.. بعد أن عصف به ومزقه العنف الأمريكى!

هذه هى المرة الأولى التى ازور فيها الصين.. ولا ادعى اننى تجولت وشاهدت كثيراً.. فالزيارة خاطفة وسريعة.. تسبق قدوم الرئيس مبارك بيومين، وتصاحبه فى جولاته ولقاءاته المكثفة.

وقد قرأت كثيراً عن الصين.. ولكن دائماً كانت الصورة ضبابية يكتنفها قدر هائل من الغموض.

ولكن على أرض الواقع.. وبين وجوه البشر.. تفكك الغموض سريعاً.. وأصبحت قادراً على أن أمسك بيدى حقيقة واضحة ومؤكدة.. لا لغز هناك.. ولا أسرار.. لقد اتفقوا على نقطة الانطلاق ان الغد يصنعه العلماء. فاعطوا العلماء حرية العمل والأبحاث والتجارب، وفروا لهم الالات والمعامل. وقدم العلماء نتائج ابحاثهم فاعطوا لهم فرصة التطبيق العملى.. مصانع وعمالا وحرية إدارة وتسهيلات فى الحركة.. ومرونة فى القوانين.

وجاء الغد إليهم طائعاً مختاراً..

هذا هو كل اللغز.. أو اللا لغز!!

على بعد ثلاثين كيلو متراً من العاصمة بكين.. تقع منطقة صناعية زارها الرئيس مبارك.. المنطقة اشبه ما تكون بحقل تجارب للعلماء.. جربوا.. ونفذوا.. وكانت نتائجهم باهرة.

المنطقة تحتل مساحة مائة كيلومتر مربع وتضم خمسين جامعة ومائة وخمسين معهداً تكنولوجياً، وأيضاً تضم ٣٨٠٠ مصنع منها ٨٠٠ مصنع تعمل بتمويل خارجى.

تصوروا كل هذه المؤسسات والمصانع فى منطقة واحدة.. وتصوروا ان جميعها يغذى بعضها البعض معامل الأبحاث تغذى المصانع.. والجامعات والمعاهد تغذى معامل الأبحاث والمصانع.

الكل فى وحدة متكاملة..

والكل تحت إدارة خاصة.. لا تعتمد على تمويل حكومى.. وإنما تعتمد على مجموعات استثمار، وتمويل ذاتى من فائض ربح إنتاج هذه المصانع.

وهذه المصانع لا تنتج البسكويت أو الشامبو.. وإنما تنتج أجهزة المعلومات الإليكترونية، وسنترالات حديثة وكمبيوتر.. ومواد بناء وطاقة.

أى أن هذه المنطقة الصناعية المتكاملة.. تعمل فى أساسيات البناء فى النمو الاقتصادى.

وهذه المنطقة.. واحدة من مناطق كثيرة ومتنوعة.. منتشرة على أرض الصين.

وهذه المناطق.. ظهرت على خريطة الصين الحديثة منذ سبع سنوات فقط..! تنفيذا لخطة اطلق عليها «الخطة ٨٦٣».

وهى قصة تستحق أن تروى..

فقد كتب أربعة علماء من أكاديمية العلوم الصينية خطابا إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى.. يعرضون فيه أحوال التطور السريع للتكنولوجيا

العالمية فى دول العالم، واقترحوا فى خطابهم العمل الجاد للحاق بمستوى تطور التكنولوجيا العالمى، وقالوا فى خطابهم(إذا لم نتحرك ونلحق بمستوى العالم المتقدم فى التكنولوجيا العالمية. . فسنواجه بنتائج وخيمة يصعب علينا أن نتصورها. . ويتعلق الأمر بمكانة وطننا الدولية وإذا كانت الصين ستدخل مصاف الدول المتقدمة أم لا فى القرن الواحد والعشرين).

كان هذا الخطاب مؤرخاً بتاريخ ٣ مارس ١٩٨٦.

بعد يومين فقط. . أعطى«دغ شياوبينج، المهندس العام لسياسة الإصلاح والانفتاح الصينى تأشيرته المكتوبة بخط يده على نفس الرسالة(هذا الأمر يجب أخذ القرار بشأنه سريعاً، ولا يجوز التأجيل فى ذلك) واجتمع مجلس الدولة الصينى. . وكلف خبيراً لوضع خطة واقعية للنهوض التكنولوجى. . وعبر ثلاث جولات من المناقشات والأبحاث استغرقت نصف العام. . ظهرت إلى الوجود خطة متكاملة لتطوير التكنولوجيا العالمية فى الصين.

وسميت هذه الخطة «٨٦٣»

وتفسير الرقم. . هو شهر ٣ - عام ٨٦. . وهو نفس تاريخ رسالة العلماء الأربعة!

إلى هذا الحد. . احترموا رأى علمائهم، واستجابوا سريعاً لنداء العصر!

وقد بلغ عدد العلماء والاخصائيين الذين شاركوا فى أعمال تنفيذ هذه الخطة ١٣ الف شخص إلى وقتنا الحاضر!!

أى أن هناك جيشاً وطنياً من العلماء والمتخصصين فى سبعة مجالات من البحوث والنتائج العلمية. . من تكنولوجيا الطاقة. . إلى الليزر. . إلى الفضاء. . إلى المعلومات. . إلى علوم الأحياء. . وعلوم المواد الجديدة. وشملت النتائج مجالات الزراعة والصناعة وعلوم المستقبل.

واصبحت الصين تقف على أرض صلبة تستقبل بكل ثقة القرن الواحد والعشرين.

وفى نفس الوقت.. اتجهت القيادة الصينية إلى الريف فهناك ٨٠٠ مليون فلاح داخل الصين (إحصائية)!

وبنفس النظرة المستقبلية رفعوا شعار (من فلاحى الأمس إلى رجال اعمال اليوم).. والهدف تشجيع وحدات العمل الصغيرة وتوفير كافة الضمانات ومرونة الحركة- خارج نطاق البيروقراطية الحكومية- للانطلاق فى الإنتاج وابتكار اساليب جديدة للتصنيع. لتحويل الفلاحين إلى صناع مهرة وإداريين.. دون أن يتركوا حقولهم.. أو يهجروا الريف!

وأصبح مألوفاً أن يتردد هذا القول: (مغادرة الحقول.. لا تعنى الرحيل عن الريف، والعمل فى المصنع لا يحتم الذهاب إلى المدينة).

أى تثبيت فكرة البقاء فى الريف وعدم الهجرة إلى المدينة.

وتحويل الريف إلى عمل زراعى، وعمل صناعى، وهكذا ضربوا عصفورين بحجر واحد.

وأصبح الآن أكثر من ثمانين مليون فلاح يعملون فى المؤسسات والمصانع داخل قراهم، ومن المنتظر أن ينضم إليهم ٢٠٠ مليون فلاح قبل نهاية هذا القرن! وهؤلاء الفلاحون هم الذين يعملون ويديرون المؤسسات الصناعية فى قراهم، أى أنهم تحولوا من فلاحين إلى رجال أعمال.. وبعضهم فى سن التفتح الأولى للشباب.. أعمارهم ما بين ٢٥ و ٣٠ عاماً.

من باب التشجيع، نظمت الإذاعة والتليفزيون المركزى مع إحدى الصحف الصينية، حملة لتقييم واختيار (أفضل رجال الأعمال الفلاحين المعاصرين) وتم اختيار مائة منهم.. نشرت صورهم وتجاربهم فى جميع أنحاء البلاد.. وأصبحوا من نجوم الاقتصاد الصينى.

من هؤلاء الفلاحين.. أتوقف عند نموذج هذه المرأة «لى فوى ليان» التى لم تدرس إلا للمرحلة الإعدادية.. وعملت فلاحة فى الريف وهى فى عمر السادسة

عشر.. أما الآن.. فهي مديرة لمصنع عصرى يصدر الملابس إلى أوروبا وآسيا وأمريكا.. ويضم مصنعها ما يزيد على ٣٢٠٠ عامل وعاملة يعملون على أكثر من ٢٠٠٠ ماكينة حديثة موزعة على عشرة مصانع صغيرة تخضع جميعها لإدارتها الحاسمة.. واكتسب إنتاجها شهرة وسمعة عالمية.. حتى إنها تفخر بأنها لم تتعرض في يوم ما لطلب تعويضات عن سوء الإنتاج فى قطعة من الملابس أو فى تأخير عن الوقت المحدد للتسليم. بل إن هذه الفلاحة المديرة تحتفظ فى مكتبها بلوحة تقدير ذهبية أرسلها لها تاجر أمريكى وكتب فيها (أطيب سمعة وأحلى جودة وأوسع شهرة) !

هذه حكاية.. من مائة حكاية لفلاحين تحولوا إلى رجال أعمال.

ما خلاصة كل هذا الكلام؟!

الخلاصة.. ركزها الرئيس مبارك فى عبارة شديدة الأهمية.. قالها عقب زيارته للمنطقة الصناعية بالقرب من بكين. (الإصرار القوى على العمل من أجل التنمية والتقدم لا يفسح المجال أمام المهاترات).

معنى العبارة.. أن العمل هو القيمة الحقيقية لضمان المستقبل.. أما المعارك الكلامية وإعادة مناقشة البديهيات والسقوط فى فخ محترفى المتاهات.. هو ضياع للحاضر.. وضياع للمستقبل.

مشاهد من رحلة هامة !!

بعد عشر ساعات من الطيران المتواصل، ومع فارق التوقيت ست ساعات بالزيادة.. وصلت طائرة الرئيس إلى مطار بكين.. ونحن معه نقاوم التعب وقلة النوم بعد أن اختلط الليل بالنهار.. ولكن لدهشتنا الشديدة نرى الرئيس مبارك بعد ثلاث ساعات فقط من الوصول يبدأ برنامج زيارته المشحون بلقاء مع رئيس الوزراء الصينى.. ثم يستقل سيارته فى موكب حافل إلى قاعة الشعب الكبرى حيث تتم مراسم الاستقبال الرسمى.

شوارع العاصمة بكين - لم أر مثلها فى اتساعها ونظافتها.. وقد ازدانت بأعلام الترحيب.. وخرج الصينيون من مكاتبهم ومحلاتهم يرقبون موكب الرئيس مبارك.. وتوقف هدير عجلات الدراجات التى اعتاد الصينيون استخدامها فى تنقلاتهم.. وتجمعت الدراجات فى مفارق الطرق. وفى انضباط تام - كما هى عاداتهم - وقفوا يرحبون بزيارة الرئيس.

وفى قاعة الشعب الكبرى كان المشهد مماثلاً مع اختلاف طبيعة المكان.. القاعة فسيحة، على جدرانها لوحات صينية فنية رائعة.. والسقف تتدلى منه الثريات الضخمة.. وطاقم حرس الشرف يدخل إلى القاعة يدق على الأرض المكسوة بالرخام.

ويدوى صوت كعوب أحذيتهم العسكرية فى نغمة واحدة بلا نشاز.. ثم يسود الصمت لدقائق.. يقطعه وصول الرئيس مبارك وبجواره الرئيس الصينى جيانج زيمن وتعزف الموسيقى السلامين المصرى والصينى لتبدأ مراسم الاستقبال الرسمى.

وعلى الفور يدخل الرئيسان إلى قاعة أخرى حيث يتم لقاء مصغر بينهما فقط يستمر أكثر من نصف ساعة ثم ينضم إليهما الوفد المصرى مع الوفد الصينى فى مباحثات مشتركة.. ثم ينتقل الرئيسان مع الوفدين إلى قاعة أخرى لا تقل فخامة، حيث تجرى مراسم توقيع الاتفاقيات.

ويبدو على الرئيس الصينى مدى سعادته وترحيبه بالرئيس مبارك فى كلماته الواضحة، أو فى تعليقاته الجانبية.. والتى تشعر من خلالها بمدى حرارة اللقاء بين صديقين يجمعهما الود والاحترام البالغ، فكلاهما مقاتل عنيد من أجل مصلحة شعبيهما.. جمعهما النضال والحلم المشترك لمواجهة تحديات المستقبل.

ينتهى التوقيع على ست اتفاقيات جديدة ثم ينتقل الرئيسان إلى صدارة القاعة حيث يبدأ المؤتمر الصحفى المشترك.. ولا أريد أن أكرر ما بثته وكالات الأنباء وشاشات التليفزيون من تفاصيل هذا المؤتمر الصحفى. ولكن أريد أن أصل إلى المحصلة النهائية التى تبلورت فى المؤتمر الصحفى ثم فى البيان المشترك ثم فى الكلمات المرتجلة التى قيلت فى نفس الليلة على مائدة العشاء الرسمى الذى أقامه الرئيس الصينى تكريماً للرئيس مبارك والسيدة قرينته.

المحصلة النهائية.. هى الاتفاق على إقامة التعاون الاستراتيجى للعبور إلى القرن الحادى والعشرين.

لماذا الصين.. رغم بعد المسافة جغرافياً؟

السؤال مهم وإجابته أفصح عنها الرئيسان المصرى والصينى فى أحاديث صحفية وتليفزيونية، أو فى لقاءات مفتوحة.

فقد قال الرئيس مبارك فى حديثه لصحيفة الشعب الصينية (أكبر الصحف الصينية توزيعاً حيث يصل ماتوزعه يومياً إلى أكثر من ثلاثة ملايين نسخة).. فى هذا الحديث الصحفى.. قال الرئيس (إن مصر تعتبر الصين دولة لديها مبادئ تعمل ما تقول وتلتزم بما تعد).

وقال أيضاً: (توجد فى العالم اليوم دول كثيرة تتبع سياسة الإصلاح الاقتصادى، ولكن عدداً قليلاً منها حقق نجاحات، وأعمال الإصلاح والانفتاح التى بدأها «دنج شياو بينج» الراحل تسير بصورة سليمة، وحققت منجزات عظيمة وهذا دليل على أن السياسة التى تنتهجها الصين سليمة، والوضع فى الصين مستقر).

وعلى مائدة العشاء الرسمى فى تلك الليلة . . ارتجل الرئيس الصينى كلمة تنم عن المشاعر الصادقة والحميمة التى يكنها لمصر وقائدها . . فقد تذكر الرئيس جيانغ زيمن زيارته لمصر فى عام ٩٦ وقال : (تركت زيارتى لمصر انطباعاً جميلاً وعميقاً ، ولا أزال أتذكرها حتى اليوم) وأضاف قائلاً : (منذ حوالى نصف قرن بعد إقامة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والصين ، وبرغم أن الوضع الدولى يشهد تغيرات كبيرة ، وأحياناً يكون الوضع معقداً . . إلا أن الصداقة المصرية الصينية لم تتأثر . . بل توطدت وتطورت أكثر .

وكل من الصين ومصر تنتمى إلى الدول النامية . . وكلتاهما دولة كبرى لها تأثيرها فى العالم منذ قديم الزمان ، والصين تعتبر مصر شريكاً هاماً فى العالم العربى وأفريقيا . . والآن اتفق الطرفان على إقامة علاقات استراتيجية تعاونية كاملة مع مصر للعبور إلى القرن الحادى والعشرين . . ونؤكد ذلك بأن البيان المشترك هو وثيقة تاريخية عابرة للقرن بين الدولتين) .

ولا يكتمل هذا المشهد فى اليوم الأول للزيارة . . إلا بلقطة للرئيس الصينى وهو يصطحب الرئيس مبارك والسيدة قرينته لتحية الفرقة الموسيقية الصينية التى عزفت لضيوف حفل العشاء مقاطع لأغنيات صينية ومصرية . . ويتوقف الرئيس الصينى ليطلب من الفرقة عزف لحن صينى يعرفه ثم بدأ يغنى بنفسه مع الفرقة كلمات أغنية شعبية صينية تبشر بالخير مع الربيع . . كان الرئيس الصينى فى قمة السعادة وهو يغنى . . وكأنه يغنى للسنوات القادمة وما تحمله من تباشير طيبة بين مصر والصين .

بدون أى بروتوكول رسمى أنهى هذه الليلة الجميلة الحافلة بالأحداث . . ونسينا التعب والإرهاق ! ونسينا أننا لم ننم منذ يومين ! !

• المشهد الثانى •

تواصل العمل فى اليوم التالى من التاسعة صباحاً بلقاء الرئيس مبارك مع رجال الأعمال الصينيين يشرح لهم مناطق الاستثمار الجديدة على خريطة مصر

ويدعوهم للتقدم والمشاركة.. فالسوق المصرية مفتوحة على السوق العربية والأفريقية.. وضمانات العمل متوافرة.. وتعهدات بتذليل كل العقبات.

ثم كانت ذروة اليوم مع وصول الرئيس إلى جامعة بكين لحضور الاحتفال الجامعى المهيب الذى سيتم فيه تقليده الدكتوراه الفخرية فى العلاقات الدولية.

جامعة بكين على مساحة شاسعة تتخللها الحدائق والبحيرات الصناعة.. وشباب الجامعة يملأ مدرجاً كبيراً ازدان بالزهور ولافتات الترحيب بالسيد الرئيس.. ودوت القاعة بتصفيق طويل عند دخول الرئيس مرتدياً الروب الجامعى ويصعد إلى المنصة ترافقه وزيرة التعليم بالصين ورئيس الجامعة وكبار الأساتذة.. مشهد لا ينسى فى جلاله ومغزاه.

وتأتى كلمة الرئيس قمة فى الفهم السياسى والثقافى.. حيث مزج بين التاريخ الصينى والتاريخ المصرى، مستخلصاً بعض المؤشرات التى تدل على حضارة الدولتين فى العلوم والثقافة.. حيث قال: (إن بلدينا قد توافقا منذ عصور سحيقة على أن العلم هو أساس كل تقدم، وأن العقل هو المرجع والفيصل، وإن العلماء والمفكرين هم حملة مشاعل أى بناء وإنجاز).

ومن هذه النقطة ينطلق الرئيس مبارك فى كلمته للحديث عن النظام العالمى الجديد حيث لا يجوز أن تكون ثمرات هذا التقدم العلمى والتكنولوجى حكراً على مجموعة معينة من الدول بل يجب أن تكون ملكاً للإنسانية كلها، فلا تكون هناك دول مهمشة كتب عليها أن تعيش بعيدة عن مجرى الأحداث، وفرض عليها أن تقنع بما يعطى لها من الدول الأكبر والأغنى.

كانت كلمة الرئيس وسط هذا الحشد الجامعى المهيب.. بمثابة درس سياسى بليغ، وتقدير خاص للعلماء.. حيث أنهى كلمته بقوله: (لعلى أستشهد فى هذا المقام بما قاله الشاعر الصينى العظيم «لى باى»:

سيأتى وقت نمتطى فيه الرياح

ونشق الأمواج

وسأطلق شراعى الأبيض كلون السحاب

وأعبر البحر العاصف.

إنها كلمات مناضل لا يعرف الخنوع أو الاستسلام، ولم يكن مفاجئاً بعد ذلك، تلك الموجة العارمة من التصفيق والإجلال للرئيس المصرى الذى عبر بحكمة بالغة عن طموحات الدول النامية، وحقها فى المستقبل.

وتخليداً لهذا اليوم الجامعى المشهود فى جامعة بكين.. طلبوا منه أن يزرع شجرة فى المدخل الرئيسى للجامعة، والتف حوله الأساتذة والطلبة فى حب وتقدير.. وبعضهم مازال يردد كلمات الشاعر «سيأتى وقت نمتطى فيه الرياح».

•المشهد الثالث•

لم تقتصر زيارة الصين على العاصمة بكين فقط، بل شمل برنامج الرئيس - ونحن معه - زيارة منطقتين صناعيتين لهما تجربة رائدة فى الاستثمار الصناعى، ولهما مكانتهما الخاصة فى الاقتصاد الصينى.

المنطقة الأولى تبعد عن بكين بنصف ساعة بالطائرة، وهى منطقة «تيان جين».. ثم فى نفس اليوم كان انتقالنا إلى المنطقة الثانية بمدينة «شنغهاى» بساعة ونصف بالطائرة.

صعود وهبوط، وبرنامج مشحون، ولقاءات مكثفة ومستفيضة.. وزيارات إلى مصانع.. وحوارات مليئة بالأرقام والإحصائيات والخرائط تنتهى دائماً بدعوة صادقة وصريحة «تعالوا إلى مصر لتشاركوا فى استثمارات المناطق الصناعية الجديدة.. فرص النجاح متوافرة.. والأسواق مفتوحة لك، سواء السوق المحلية المصرية، أو السوق العربية والأفريقية..».

والدعوة رددها الرئيس مبارك أكثر من مرة فى كل لقاءاته بهاتين المدينتين.

مثلاً فى منطقة «تيان جين» التى شهدت تطوراً صناعياً مذهلاً بفضل الاستثمارات الأجنبية.. كانت قبل خمسة عشر عاماً أرضاً قاحلة ليس عليها أى

حياة.. وبدأ التخطيط لأن تكون مدينة تنمية صناعية واستطاعت حتى الآن أن تجذب عشرة مليارات دولار من استثمارات أمريكية، غير الاستثمارات الصينية.

حققت تلك المدينة وحدها صادرات بمليارين من الدولارات.. بينما بلغ حجم الإنتاج الصناعي ستة مليارات دولار. هذا في عام واحد!

ولك أن تتخيل حجم العمل في هذه المدينة.. ولكن عندما تمر في شوارعها المتسعة لن تجد فرداً واحداً يسير في الطريق.. فالجميع داخل المصانع يعملون في التزام كامل بشروط العمل.. وكلهم من الشباب الصيني تدربوا على العمل مع الأجهزة التكنولوجية المعقدة - كما شاهدناهم في مصنع «موتوريللا» للاتصالات.. كل واحد أمامه جهاز مثبت عليه شاشة كمبيوتر يعمل في صمت ودقة بالغة.. فالأجر على أساس القطعة.. ومن ينجز المطلوب يستحق أجره كاملاً.. لا وقت للهزار.. ولا وقت للاسترخاء.. ولا حتى وقت لمتابعة زيارة ضيف كبير كالرئيس مبارك.. الكل يعمل على ماكينته في توحد كامل.

هذا النظام الدقيق.. هو الذي يثمر بالأرقام الضخمة للصادرات.

في مقاطعة بودونج بشنغهاي.. كانت الصورة مذهلة من حجم العمل وبناء المصانع الجديدة.. ومنها مصنع (بيل) لأجهزة الاتصالات والتي بدأت العمل في عام ٨٤ باستثمارات بلغت ٢٣ مليون دولار فقط.. وصلت الآن إلى ١٢٠ مليون دولار، نصيب الجانب الصيني في المشاركة وصل إلى ٦٠٪ وأصبحت تصدر إنتاجها إلى أوروبا بالإضافة إلى تجديد شبكة الاتصالات في الصين كلها!

وقد حقق هذا المصنع وحده توفير ٢٥ ألف فرصة عمل لشباب الصين!

وأصبحت مدينة شنغهاي تضارع أكبر مدن التجارة والمال في العالم.. ناطحات سحاب مذهلة.. وكباري معلقة لثلاثة طوابق.. وحركة بناء وتشييد في كل مكان بالمدينة.. وهم بالفعل يستحقون هذه الطفرة الهائلة.. لأن قانون الحياة عندهم محدد بالعلم.. والعمل.. ولا مجال للكسالى.

سر المعجزة الكورية !!

فى العاصمة «سيول» تتذكر أوليمبياد عام ٨٨ بالاستاد الضخم ومجموعة الملاعب المتفرقة.. وسط بنايات كناطحات السحاب.. فى تشكيل جمالى رائع ساعدت فى إبرازه الطبيعة الجبلية لشبه جزيرة كوريا.. وحيث ترتفع الشوارع وتنخفض فوق تلال خضراء مزروعة بعناية شديدة.

ورغم أن الكثافة السكانية فى كوريا تعتبر من أعلى الكثافات السكانية فى العالم.. حيث يسكن العاصمة سيول وحدها ما يقرب من ١١ مليون نسمة (مجموع السكان يزيد على ٤٦ مليوناً).. إلا أن حركة المرور تمضى فى انضباط دقيق واحترام كامل.

وهذه القدرة على الانضباط.. هى الملمح الرئيسى للشخصية الكورية.. يعمقها الإحساس بالتحدى للوثوب إلى الصفوف الأولى كقوة اقتصادية باهرة.. لم تهزمها الأزمة الاقتصادية الآسيوية عام ٩٧.. إلا لبضعة شهور ثم عادت لتضمد جراحها وتزداد تحدياً لكل الظروف.. وقد وصل دخل الفرد سنوياً إلى ما يقرب من ١١ ألف دولار! ورغم أن كوريا عانت طويلاً من الاحتلال اليابانى الذى ظل جاثماً على صدرها لمدة ٣٥ عاماً.. نهبوا خلالها الكنوز القومية والآثار الكورية التى لم تعد حتى الآن.. إلا أنهم بعد تحرير وطنهم عام ٤٥.. دخلوا فى متاهة جديدة وهى تقسيم كوريا إلى قسمين.. القسم الشمالى وقد احتلته القوات السوفيتية.. والقسم الجنوبى أصبح من نصيب القوات الأمريكية.. وفقاً لاتفاقية «بواتسدام» عام ٤٥.. ولم تمض ثلاثة أعوام حتى تعلن كوريا الجنوبية قيام الجمهورية..وبعدها بعام تكون الحكم الشيوعى فى الشمال برئاسة كيم إيل سونج الذى حشد قواته لغزو كوريا الجنوبية واستمرت الحرب ثلاث سنوات دمرت الأرض واضعفت الاقتصاد.. وخلفت الملايين بدون مأوى.. أو منفصلين عن عائلاتهم.

وكانت المأساة الحقيقية أن الكوريين حاربوا الكوريين.. مما زاد من مرارة التقسيم.. الأمر الذى لايزالون يعانون منه حتى الآن.

ومن هنا.. كانت حفاوتهم بالغة بزيارة الرئيس مبارك.. فى أول زيارة رسمية لكوريا الجنوبية.. وطلبوا وساطته فى التدخل لفض الاشتباك بين الشمال والجنوب ولم شمل الأسرة الكورية على أساس سياسة الوفاق والتعايش السلمى.

والتقى الرئيس مبارك مع الرئيس الكورى فى مباحثات ثنائية.. ثم فى مؤتمر صحفى مشترك.. ثم على عشاء رسمى.. وفى كل هذه اللقاءات كان الترحيب حارا بالرئيس مبارك ولزيارته الأولى لكوريا الجنوبية، التى كانت بمثابة فتح الابواب امام المشاركة الاقتصادية الفعالة بحضور رجال أعمال من مصر وكوريا.

وتنوعت الاتفاقيات المشتركة مع كوريا.. من إنتاج شاشات التليفزيون إلى سيارات النقل الثقيل.. إلى أجهزة تكييف الهواء إلى تطوير الترسانة البحرية.. إلى إنتاج أدوية جديدة لعلاج الفشل الكلوى وأمراض الكبد الوبائى.. وهى الأدوية التى برعت فى تصنيعها كوريا وأصبحت لها سمعة عالمية.

لقد أثبتت الشخصية الكورية- رغم التاريخ المر بالاحتلال والحروب والتقسيم- أن البقاء للأقوى اقتصادياً.. حتى لو أصيب هذا الاقتصاد بأزمة سيولة كما حدث فى عام ٩٧.. إلا أن القدرة على الصمود والتحدى جعلتهم يخرجون من الأزمة ويستردون عافيتهم مع احتياطى نقد أجنبى وصل إلى ٥٢ بليون دولار.

وحتى لا يضيع المعنى وسط هذه الأرقام. يمكن تفسير المعجزة الاقتصادية الكورية للأسباب التالية:

الدعم الحكومى القوى- استراتيجية خاصة للتصدير- التأكيد على استخدام التكنولوجيا المتقدمة فى الصناعة- وجود العمالة المتعلمة والمدربة.

وأمام النقطة الأخيرة نتوقف قليلاً لأنها تمثل مشكلة بالنسبة لنا فى مصر.

ففى التعليم الكورى يدرجون فى مناهج التعليم بالمرحلة الإعدادية كورسات اختيارية للتعليم الفنى أو المهنى.. على أن يكون التعليم بعد المرحلة الإعدادية على ثلاث سنوات.. إما تعليماً فنياً أو تعليماً مهنياً عالياً.

ومن هنا تتكون طبقة العمالة الفنية المدربة التى تعمل بالمصانع أما الالتحاق بالجامعة- فعلى حد اعترافهم - فيعتبر أمراً شديد الصعوبة لضمان مستوى الطلبة الملتحقين.

فهل نتعلم من هذا الدرس.. حتى لا نغرق فى بحور الخريجين انصاف المتعلمين؟!

ويبقى شىء أساسى فى الشخصية الكورية.. هو تمسكها بتراثها الثقافى والإنسانى.. فمازالت الحرف التقليدية اليدوية لها سوق رائجة، ولايزال العديد من هذه الحرف ينتج فى كوريا بنفس الأسلوب الذى كانت تنتج به منذ مئات السنين مع بعض التغيرات الطفيفة لتناسب متطلبات السوق.

وهم أيضاً مازالوا يحرصون على ارتداء الملابس الكورية التقليدية فى المناسبات الدينية والاجتماعية، كدليل حى على تمسكهم بتراثهم، وزهوهم به.. وهذه الملابس تسمى «الهانبوك» وهى من الألوان الزاهية الأحمر والأصفر.

وفى قاعات الاستقبال بفندق «شيلا»- حيث أقام السيد الرئيس ومعه الوفد المرافق- كانت الفتيات الكوريات بملابس «الهانبوك» يقمن بواجب الضيافة بطقوس الانحناء والتبجيل بذوق راق.

ومازال قائماً فن المعمار الكورى المتأثر بالمعمار البوذى الصينى مع بعض التعديلات والإضافات فى استخدامات الالوان.. حيث كل لون يرمز لمعنى خاص.. فالأزرق إلى الربيع، الأحمر إلى الصيف، الأبيض إلى الخريف، والأسود إلى الشتاء.

والمدهش تماماً هذا الحرص على تواجد هذا المعمار التقليدى وسط البنايات الحديثة كرمز على خصوصية الشخصية الكورية..

رغم تدفق الاستثمارات الأمريكية والتى تحاول أن تفرض طابعها الغربى فى المعمار.. وهذا التماذج بين القديم والحديث تلمحه فى ميادين العاصمة «سيول» وفى أهم شوارعها.

ولم يتخل قصر الرئاسة فى العاصمة عن الطابع الاصيل للشخصية الكورية.. فهو أشبه ببناء معبد كبير ضخم مزود من الداخل بكل الإضافات العصرية دون نشاز أو بهرجة.. ويسمى قصر الرئاسة بالبيت الازرق.. حيث طلاؤه من الخارج بكل درجات اللون الأزرق.

وقد دخلنا إلى هذا القصر المهيب لنشهد المؤتمر الصحفى المشترك للرئيس مبارك مع الرئيس الكورى، «كيم داى جونج» وكان اللقاء يفيض بالحرارة والتبجيل لهذه الزيارة المصرية الأولى من نوعها فى تاريخ كوريا الجنوبية.

روسيا ..
الخروج من دائرة النسيان !!

هذه هى المرة الثالثة التى أزور فيها موسكو.. أشياء كثيرة تغيرت.. السياسة، الوجوه، الشعارات، الكلام.. حتى الملابس.. انقلاب صارخ فى تفاصيل الحياة اليومية، وفى صورة الشارع الروسى.

الزيارة الأولى كانت فى نهاية الستينيات.. والثانية منذ عشر سنوات.. ولا يتبقى فى الذاكرة سوى ملامح من جبروت السلطة والإحساس بعدم الحرية والأمان.. فأنت مراقب من حيث لا تدرى.. وظلال من الكآبة والتجهم والحياة الجافة الصارمة تسيطر على الشارع، وداخل البيوت، وحتى الاحاديث الخاصة!

لم تكن ترى فى الشارع سوى السيارات السوداء لرجال الحزب.. والفاترينات المظلمة، المتربة، الخالية من البضائع.. وطوابير ممتدة بلا نهاية لشراء «الفودكا» فى المواعيد التى حددها الحزب.. وتشم رائحة حساء الكرنب تهاجمك من المطاعم القليلة العدد، ومن نوافذ المنازل.. وشعارات محاربة الإمبريالية والخطب النارية تنطلق من أجهزة الراديو والتليفزيون.

الصورة الآن.. مختلفة تماماً.. وتصيبك بالدهشة.

الشوارع مزدحمة بالسيارات من كل نوع، ومن أحدث الموديلات، ونسبة كبيرة منها من المصانع الالمانية.. وتتكدس طوابير السيارات فى إشارات المرور لفترات طويلة، وهو ما كان لا يحدث من قبل.. الفاترينات اضيئت وامتلأت بالبضائع من كل أنحاء العالم.. وفروع لأكبر المحلات العالمية وبيوت الأزياء.. وأجيال جديدة من الفتيات والنساء يرتدين أحدث الموديلات والفساتين القصيرة وماكياجاً كاملاً..ونبتت الإعلانات على أعمدة الشوارع وفى واجهات المنازل تعلن عن عطور وسجائر واحذية وملابس من أمريكا وفرنسا.. ومطاعم فاخرة - كاملة العدد تقريباً- تقدم أشهر المأكولات العالمية.. بل وتفتخر بعضها بأنها تقدم لحم الستيك الامريكى، والاستاكوزا الكندى والفرنسى!! وملاه ليلية كل شىء فيها مباح والدفع بالدولار.. ودور سينما تقدم أحدث الافلام الامريكية.. والموسيقى والغناء الغربى يسيطر على موجات الإذاعة وشبكات التليفزيون الخاصة والتى يملكها رجال الأعمال، وأغلبهم من اليهود.. وزخم من الصحف

والمجلات وصل عددها إلى ١٥ ألف صحيفة ومجلة يسيطر عليها أيضاً رجال الأعمال من الروس واليهود !

انفتحت كل الأبواب على مصراعيها . . وتبدلت الصورة تماماً .

••

وكان لهذا الانفتاح السريع والمفاجئ . . ضحايا كثيرون . . فقد ارتفعت الاسعار بشكل جنونى . . أصبحت فوق طاقة أى مواطن روسى عادى . . وأصبح يضج بالشكوى من هذا الجنون فى الاسعار . وازدادت هموم الفقراء وآلامهم حيث وجدوا انفسهم على هامش حياة لا يستطيعون الاقتراب منها ، أو الاستمتاع بها كما يفعل الاغنياء . . فالمرتبات عاجزة عن توفير الحد الأدنى من الضروريات . . بعد أن أصبح الدولار سيد الموقف . . وتوارى سعر الروبل الروسى إلى مجرد عملةلا تشترى شيئاً . . وبعد أن كان الروبل يوازى سعر الدولار فى المصرف الرسمى . . أصبح الدولار الواحد يساوى حوالى ستة الاف روبل ! وتغيرت بالتالى فئات العملات الورقية المتداولة . . فنجد ورقة بخمسمائة ألف روبل . . . وتتدرج الفئات إلى أصغر ورقة بمائة روبل . . وهى ورقة لا تشترى أى شيء على الإطلاق ! !

وسجل معدل التضخم رقماً وصل إلى ٢١,٨ خلال عام ٩٦ . . وأوردت الإحصائيات الروسية . . أنه فى كل عام يهاجر من روسيا حوالى ثمانين الف شخص متجهين إلى المانيا والولايات المتحدة وكندا .

وكان من نتيجة هذه الآثار السلبية للانفتاح الاقتصادى السريع والمفاجئ . . أن انشغلت الإدارة الروسية بإعادة ترتيب البيت من الداخل . . ووضع برامج جديدة للإصلاح الاقتصادى حتى لا ينفجر الوضع شعبياً .

ونجحت إدارة الرئيس يلتسين فى ضبط الأمورالى حد ما .

وطال الوقت فى ترتيب البيت الروسى من الداخل . . وانشغلت الإدارة الروسية عما يحدث فى توزيع الأدوار . . ونست أو تناست دورها كقوة عظمى يحسب الغرب الف حساب لها .

نست لو تناست بالتالى . . دورها فى الشرق الأوسط كسند وصديق فى كل الأزمات والمواقف . . وغابت عن القيام بدور فعال فى إقرار عملية السلام بالشرق الأوسط ، رغم انها القوة العظمى المشاركة لأمريكا كرعاة لتحقيق السلام

نست أو تناست . . ولكن مصر لم تنس ! !

مصر باعتبارها قائدة للمنطقة العربية . . والمبادر بقضية السلام . . والمدافع الأقوى عن شرط السلام العادل .

مصر لم تنس ايضاً . . دور الصديق الروسى الذى وقف بجوارها بالأسلحة والذخيرة والخبراء أيام الأزمات والحروب والعدوان على أراضيها ومصر لم تنس ابدأ . . دور الصديق الروسى فى بناء السد العالى العظيم . . وإنشاء الصناعات الثقيلة كصناعة الحديد والصلب . . وصناعة المعدات الحربية . . ومجمع الألمونيوم .

من هذا التاريخ المتواصل بالود والتعاون والثقة المتبادلة . . قرر الرئيس حسنى مبارك أن يسافر إلى موسكو ، فى مهمة عمل مكثفة وسريعة .

كانت المهمة ذات شقين : سياسى واقتصادى .

فى الشق السياسى . . كان المطلوب تنشيط الدور الروسى لكى يكون أكثر فاعلية لدفع مسيرة السلام فى الشرق الأوسط . . وحرص الرئيس مبارك الا يتخلى عن صراحته المعهودة ، وهو ينتقد بشدة غياب الدور الروسي عن ساحة الشرق الأوسط .

كان صريحاً ومباشراً لأقصى حد ، وهو يتحدث مع رئيس تحرير الصحيفة الروسية «نيزا فيسيمايا جازيتا» قبيل زيارته لموسكو . . والتى نشرتها الصحيفة فى صدر صفحتها الاولى وثلثى الصفحة الخامسة فى أول ايام الزيارة . . مع صورة كبيرة للرئيس مبارك ، وتحتها تعليق «هذا الرجل قادر على الاستماع والإقناع» .

بنفس هذه الصراحة والوضوح . . اتسم اللقاء المنفرد بين الرئيس مبارك والرئيس يلتسين . . حتى إن الرئيس يلتسين خرج بعد هذا اللقاء ليعلن فى المؤتمر

الصحفى المشترك. أن هذه الزيارة المهمة من الممكن أن نعتبرها زيارة الاختراق فى العلاقات بيننا بعد فترة الركود فى كافة مجالات التعاون بيننا، ثم قال: «إننى اتفق فى الرأى مع الرئيس مبارك الذى قال لى بكل صراحة وصداقة أن وجود دور روسيا فى الشرق الأوسط ناقص. لذلك أعطيت تعليماتى المباشرة لكل القيادات الروسية لإعادة ترتيب الوجود الروسى فى المنطقة ورفعه للمستوى المطلوب».

حدث هذا أمام حشد كبير من الصحفيين ومراسلى شبكات التليفزيون العالمية الذين تجمعوا فى هذا المؤتمر الصحفى داخل إحدى قاعات قصر الكرملين.. قاعة فسيحة مهيبة تتزين جدرانها بالنقوش والرسوم المذهبة.. وتتدلى من سقفها العالى جداً نجفة لا يقل وزنها عن الفى كيلو جرام.. ولا أحد يتخيل منا- نحن المتواجدين فى هذه القاعة- كيف حملوا كل هذه النجفة، وضبطوا اتزانها فى منتصف السقف الدائرى المزين بفتحات زجاجية تطل على السماء.

فخامة المكان وهيبته.. يعكسان اهمية هذا اللقاء التاريخى الذى بدأ بتوقع الاتفاقيات بين البلدين، ثم الاعلان المشترك ..

••

وماذا عن الخوف من عصابات المافيا فى روسيا؟

لا يمكن إنكار هذا الواقع الذى نهش الجسد الروسى لعدة سنوات بعد الانفتاح المفاجئ.. ولكن مع مرور الأيام بدأت قبضة الحكومة الروسية تسيطر على هذه العصابات.. إلا أن روح الحرب الباردة فى الدعاية ضد روسيا مازالت تستخدم هذا السلاح لترهيب المستثمرين الغربيين من إقامة مشاريعهم فى موسكو تحت دعاوى الفوضى وعدم الأمان.

رغم أن البيانات الرسمية لحكومة روسيا.. تؤكد أن حجم الاستثمارات الأمريكية وصل إلى ٢ بليون دولار حتى منتصف ٩٧.. وما كان هذا الرقم يتحقق إلا بوجود ضمانات وحماية للاستثمار الأجنبى.

وهذا ما تؤكده بالفعل حكومة روسيا.. وما التزمت به بالفعل في بنود الاتفاقيات الأخيرة مع الجانب المصرى. وقصص المافيا التى تتردد فى موسكو.. ينحصر اغلبها فى عصابات الجريمة المنظمة للدعارة وتهريب المخدرات.. وتكتشفها بسهولة فى الملاهى الليلية التى انتشرت بشكل واضح على خريطة موسكو وفى أحدث إحصائية نشرتها مجلة «باسبور إلى عالم جديد» والتى تصدر فى موسكو.. أن هناك حوالى ثلاثين عصابة إجرامية لها تنظيمات مستقرة فى موسكو متخصصة فى سرقة السيارات والاختطاف وتهريب المخدرات والدعارة، وان عمدة موسكو (وهو من أكثر الشخصيات التى تتميز بالشعبية الكاسحة) قرر تقسيم العاصمة إلى عدة مقاطعات لإمكان السيطرة على هذه الجريمة المنظمة وتطهير العاصمة منها فمازال ترتيب البيت من الداخل يحتاج إلى عمل متواصل.

••

ولكن.. رغم كل شيء.. فإن روسيا جديدة.. تولد بعد مخاض مرير وقاس.. وجاءت زيارة مبارك لتكسر حواجز الصمت والنسيان، ولتعيدها قوية ومؤثرة.. على الاقل فى قضية الشرق الأوسط.

الجنوب يعلن احتجاجه !!

بعد ١٤ ساعة من الطيران، والتوقف فى صالات الانتظار بمطار سنغافورة.. نصل إلى كوالالمبور عاصمة ماليزيا.. نضبط ساعاتنا على التوقيت المحلى بزيادة ست ساعات عن توقيتنا.. سافرنا ليلا..ووصلنا ليلا.. وتسرب منا النهار.. نسمة هواء ساخنة تستقبلنا.. ترطبها عبارة التحية «السلام عليكم» المنطوقة بلغة عربية سليمة.. فتشعر بالطمانينة والألفة.. وأننا جيران رغم بعد المسافة.

نحن الآن فى جنوب آسيا.. ولكننا جيران. جيران فى الحلم والواقع الذى نحاول أن نتخطاه.ما يجمعنا أننا من دول الجنوب، التى تسعى بكل الجهد لكي لا تكون على هامش خريطة النظام العالمى الجديد، بل تكون لها قوة الوجود والتأثير والفاعلية.

فليس من العدل، أو من مصلحة العالم.. أن تنفرد دول الشمال بكل المزايا..وتنكفئ دول الجنوب على متاعبها وهمومها.. كلما تخلصت من مأزق وحققت نجاحاً ورفعت رأسها قليلاً.. سرب لها الشمال مأزقا جديداً.. كما حدث مؤخراً فى انهيار أسعار العملات فى بورصات جنوب شرق آسيا!!

ليس من العدل.. أن يظل العالم منقسماً إلى جيران الرخاء.. وجيران الفقر.. لان أى خطر يهدد العالم. سيصيب الجميع بلا استثناء.. ولن يكون هناك تصنيف للشمال أو الجنوب.. فالكل فى سلة واحدة!

ومن هنا.. كانت اهمية هذا المؤتمر الذى يضم ١٥ دولة من دول العالم الثالث والذى يسمى (بمجموعة الـ ١٥).. على غرار مجموعة الدول الصناعية السبع الكبرى.. فإذا كان الشمال يجتمع لحماية مصالحه.. فلماذا لا يجتمع الجنوب لحماية مصالحه أيضاً!

ومصر عضو مؤسس وبارز فى مجموعة الـ ١٥ والتى تضم ١٥ دولة من قارات آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية.. وقد عقدت أول قمة لها فى عام ٩٠ فى كوالالمبور.. ثم تلتها قمم خمس متنقلة بين قارات المجموعة الثلاث.. وهاهى هذا العام يأتى دور كوالالمبور فى عقد القمة السابعة. ولم تكن مجرد قمة عادية.. بل كانت قمة ساخنة ومصيرية أيضاً.. وكان حضور مصر بزعامة الرئيس مبارك

على رأس مجموعة عمل على أعلى مستوى وزارى، حضوراً قوياً ومؤثرا ومحركاً للاحداث.. مما شهد به الجميع بأنه ميلاد جديد لمجموعة الـ١٥.

••

وقبل أن ندخل إلى أروقة وقاعات المؤتمر.. لابد أن نمر بالشارع الماليزى.

المفاجأة التى اذهلتنى شخصيا.. أننى كنت اتصور أن ماليزيا، كما يتصور الكثيرون غيرى.. انه بلد من العالم الثالث.. ونحن نعرف ما هو العالم الثالث.. فى الفقر والازدحام والبطالة والأمية وفوضى الحياة.

المدهش تماماً.. انه غير ذلك.. بلد تم تخطيطه بدراسة واعية.. وفهم حقيقى وحب للطبيعة.. تتجاور البنايات العملاقة والأبراج على أحدث طراز معمارى فى توازن دقيق ومحسوب مع المساحات الخضراء والغابات الطبيعية.. ومن شدة تعلقهم بالأشجار والنخيل، قاموا بتزيينها بعناقيد من اللمبات الكهربائية الملونة والصغيرة والتى لا يتجاوز حجمها حبات العنب.. فتبدو على البعد وكأنها لوحة ملونة شديدة الجمال والإبهار.. عرس دائم.. واحتفال لا ينتهى.

وبنفس اللمسة الجمالية.. زينوا واجهات المبانى وأحاطوها بالأضواء الملونة.. واقاموا النافورات المتعددة الأشكال.. وأحواض الزهور بألوانها الاستوائية الصريحة والعفية.. وفى وسط المدينة يرتفع برجان متلاصقان.. اطلقوا عليهما البرجين التوأم، تتلألأ أضواؤهما فى ذوق رفيع، والبرجان مخصصان لمكاتب الشركات والمؤسسات الماليزية.. ويجاورهما برج ساعة كوالالمبور بقبابه الذهبية، تحفة معمارية فائقة الدقة والجمال.. وعلى مقربة قباب المسجد الكبير المشيد منذ ثمانين عاما وترتفع مآذنه البيضاء وكأنها شهاب من نور ساطع يخترق الفضاء.

الفن والجمال.. عنوان صريح وملموس.. وهدف اساسى لتعويض الإنسان الماليزى عن الجهد الشاق الذى يبذله فى العمل يومياً.. فمن حق هذا الإنسان أن يفتح عينيه على شارع نظيف.. وقطعة من الفن الجميل.

المدهش تماماً. تخطيط الطرق والكبارى العلوية، وكأنك فى إحدى الولايات الأمريكية المتقدمة.، وانسياب المرور فى دقة واحترام كامل للقواعد.. لا صوت لآلة تنبيه.. ولا مشاجرات وشتائم.. بل الكل داخل السيارات المكيفة، اغلقوا نوافذها والتزموا تماماً بآداب المرور. حتى فى داخل الاحياء الشعبية- كالحى الصينى مثلا- رغم الزحام وتنوع باعة الأرصفة والمطاعم، إلا أنك لا تجد ورقة مهملة ملقاه فى الشارع، أو حتى عقب سيجارة.. فالنظافة قانون وسلوك لا يمكن اختراقه.

والعمل حق للجميع.

وتكاد تكون ماليزيا إحدى دول العالم القليلة التى لا تعانى من البطالة. .فالكل يعمل ليس فى حدود ساعات العمل الرسمية، ولكن أيضاً الكل يعمل ساعات إضافية.. فهناك معدلات إنتاج يجب أن تتحقق وطلبات تصدير يجب الالتزام بمواعيدها ومواصفاتها.. فالتصدير أحد الأهداف القومية التى لا يجوز الإخلال بها.. وقد وصل حجم صادرات ماليزيا فى العام الماضى فقط إلى ثمانين مليار دولار (للمقارنة.. صادرات مصر عن نفس الفترة لا تتجاوز ثلاثة مليارات دولار!!)

وقد وصل دخل الفرد سنويا فى ماليزيا، قبل أزمة انهيار العملات .إلى ما يعادل خمسة الاف دولار فى السنة.

وتلمس هذا المستوى المرتفع للدخل.. فى عدد السيارات الجديدة التى تجوب الشوارع (وأغلبها يابانى والمانى).. وفى عدد أجهزة التليفون المحمول والتى تلمحها فى كل يد.. وفى مستوى الأناقة والنظافة فى الملابس.. وفى عدد المحلات التجارية الضخمة المتعددة الطوابق والتى تضارع أرقى مبانى (المول) فى أمريكا.. ومنها على سبيل المثال مول أو مركز تجارى ضخم يحمل اسم (الأهرامات- شروق الشمس) والمبنى مصمم على شكل هرم محاط بجدران منقوشة برسوم المعابد المصرية القديمة.. ويقبع على الطريق المؤدى إليه تمثال

كبير على شكل أسد فى جلسته المهيبة الشامخة ، وكأنه أيضاً أحد الآثار المصرية القديمة.. وتتواصل رسوم المعابد الفرعونية على الطريق المؤدى إلى (المول) وكأنك انتقلت إلى الاقصر.. ولهذا السحر الخاص أصبح ذلك المركز التجارى من أهم الأسواق فى كوالالمبور، ومزاراً يستمتع به الزائر للشراء أو الترفيه (بداخله مسرح وديسكو وصالة للتزحلق ومطاعم متنوعة واربعة طوابق من المحلات التجارية والتى تجد فيها بضائع من الشرق والغرب).

وتندهش لهذه القدرة الفائقة على العمل الجاد المتواصل الذى اثمر كل هذه المشاريع الصناعية والتجارية ومراكز التكنولوجيا المتقدمة فى صناعات الحاسبات الإلكترونية ونظم المعلومات وأجهزة الاتصال.

وفى نفس الوقت.. هناك التزام دينى وأخلاقى.. بلا تعصب أو تطرف - فالإسلام هو الدين الوسمى للدولة، كما يكفل الدستور حرية العبادة للديانات الأخرى مثل البوذية والهندوسية.. وهناك كنيسة ضخمة تقع فى قلب العاصمة، ويرتفع فوقها الصليب مضاء بالنيون.. ولم يكن غريباً أن تكون بطاقات الدخول إلى مؤتمر قمة المجموعة الـ ١٥.. مرسوماً عليها المسجد والكنيسة معاً.

ولا إخلال بالسماحة الدينية.. ولا تجرؤ على الانحلال.. فالقوانين صارمة تحكم الجميع.. والاخلاقيات محفوظة ومصانة.. حتى انهم منعوا تركيب «الدش» لاستقبال القنوات الفضائية.. خوفا من البرامج والأفلام الإباحية.. ويقال أيضاً خوفا من التيارات السياسية والثقافية المعادية حتى القنوات الإخبارية كإرسال C.N.N.. يقال إنهم يقومون بتسجيله وتنقيته من الشوائب المزعجة قبل أن يعاودوا بثه من جديد.

وهذا النظام الصارم.. لم يكن هدفه خلق المدينة الفاضلة.. ولكن خلق مجتمع مشغول بالعمل والإنتاج.. حتى أصبحت ماليزيا احد النمور الآسيوية البارزة، والمؤهلة لتكون من الدول المتقدمة الغنية مع مطلع القرن الحادى والعشرين.. لولا ما حدث مؤخراً.

[illegible] ث .. هو زلزال البورصات العالمية .. الذى بدأ بانهيار الأسواق المالية [illegible] تايلاند- أحد النمور الآسيوية- ثم امتدت بوادر الأزمة بانخفاض فى [illegible] الملياردير العدوى إلى انخفاض عملات اندونيسيا وماليزيا .. ثم [illegible] اليهودى، المجرى الأصل (جورج سورس) عندما دخل ببلايين الدولارات للمضاربة فى أسواق العملات الآسيوية، فحدث الانخفاض المروع فى العملات .. وتأثرت اندونيسيا بشدة حيث انخفضت قيمة العملة لما يقرب من ٣٨٪ .. مما أدى بأندونيسيا أن تطلب قرضا سريعاً بثلاثين مليار دولار!

نفس الشيء حدث في ماليزيا .. فانخفضت قيمة العملة حوالى ٢٥٪ مما عبر عنه رئيس وزراء ماليزيا «مهاتير محمد» بأن ماليزيا فقدت عشر سنوات من عمر إنتاجها وتقدمها .. وهذه الخسارة الفادحة اثرت إلى حد كبير فى طموحات ماليزيا لكى تصعد إلى الدولة المتقدمة .. فهى خسارة جهد وعمل الشعب الماليزى اطاحت بها المضاربات المسموحة فى اسواق العملات، وكان من نتيجتها ان ينخفض الدخل السنوى للمواطن الماليزى بمقدار الف دولار .. وان تعاد ترتيب خطط التنمية لتجاوز الأزمة وقبول التحدى بمزيد من العمل الشاق!

ولكن من يضمن ألا تتكرر هذه الأزمات المتعمدة؟

وبرؤية ثاقبة يتقدم الرئيس مبارك باقتراح محدد «عقد اجتماع لمحافظى البنوك المركزية ورؤساء هيئات اسواق المال فى دول المجموعة، للتشاور حول كيفية التعامل مع هذه الصعوبات التى تنتج عن التدفق السريع لحركة رؤوس الأموال».

ويوافق المؤتمر بالإجماع على هذا الاقتراح .. ويصبح هذا الاقتراح المصرى من أهم الإنجازات الفعلية للمؤتمر.

ويواصل الرئيس مبارك صراحته الكاشفة لموقف دول الشمال .. فيقول:

«لقد حاولنا أن نرتب لإجراء حوار مع الدول الصناعية السبع إلا أن تلك المبادرة لم تجد صدى كافيا لدى المجموعة المذكورة، على الرغم من الحاجة المتزايدة لحوار فعال، كفيل بأن يعطى دفعة ملموسة للتعاون بين الشمال والجنوب، ويزيل المخاوف والقلق. الناشئين من تطور الأوضاع الاقتصادية الدولية على نحو غير متوازن».

•

ويؤكد مبارك من جديد على أهمية الحوار بين الشمال والجنوب .. حيث إن المصلحة مشتركة .. فيقدر ما يستفيد الجنوب ، بقدر ما يستفيد أيضاً الشمال بوجود اسواق لمنتجاته فى دول الجنوب ويتوقف الرئيس مبارك .. أمام القارة الأفريقية وما تتعرض له من تهميش مصالحها ودورها فى التنمية .. علما بأن أفريقيا تضم ثلثى الدول الأقل تقدماً فى العالم .. ويأخذ مبارك رقمين يوضحان مدى هذا التناقض المروع بين الجنوب والشمال .. الرقمان أوردتهما إحدى الدراسات الاقتصادية مؤخرا .. حيث من المتوقع خلال الثلاثين عاماً القادمة .. أن يصل دخل الفرد فى دول أوروبية وغربية إلى أربعين الف دولار فى السنة .. بينما ينخفض متوسط دخل الفرد فى تلك الدول الافريقية إلى ٣٢٥ دولاراً فقط فى السنة ! ! والفرق بين الرقمين مخيف ..

ويهدد بتفجر القلاقل والصراعات على حد قول مبارك ومطالبا بتجميع الطاقات والقيام بتحرك سريع وحاسم للحيلولة دون تعميق الفجوة .. حرصاً على مصلحة العالم ككل .

وفى نفس الاتجاه .. قال الرئيس «موجابى» رئيس زيمبابوى» .. إن هناك ٣٣ دولة افريقية من بين ٤٨ دولة فى العالم ، هى الأكثر فقرا والأقل نموا .. وهذه الحقيقة المؤلمة تشكل خطرا فادحا على القارة ، وعلى العالم !

••

المفاجأة انه بعد نهاية أعمال مؤتمر دول الجنوب .. أعلنت الطبيعة مشاركتها باصوات مدوية للبرق والرعد ، اعقبها هطول الأمطار لمدة تزيد على الساعتين وبغزارة لم أشهد لها مثيلاً طوال حياتى .. وكأن الطبيعة تعلن ضم صوتها إلى أصوات شعوب الجنوب فى أنه لا يصح إلا الصحيح .. وأن من حق جميع شعوب العالم أن تعيش فى طمأنينة ورخاء .. بعيداً عن مناورات ومؤامرات دول الأغنياء الذين يتصورون أن من حقهم فقط أن يستمتعوا بكل شىء .

أوراق من رحلة إلى خط الاستواء - أبريل ٨٥

ليالى القمر
فى جزر المالديف !!

وجوه سمراء لفحتها أكثر أشعة الشمس الاستوائية الحارقة أسماؤهم كلها عربية الأجداد والآباء والأبناء..

قد لا يجيدون التحدث باللغة العربية.. ولا يسعفهم في الحوار سوى بعض العبارات أو الكلمات.. ولكن مع الأجيال الجديدة، بدأت خطة شاملة فى المدارس.. لتعليم اللغة العربية من خلال مدرسين منتدبين من الدول العربية.

لهذا تشعر بالسعادة.. عندما ترى الأطفال. فى طرقات الجزر التى يسكنونها وقد خرجوا قبل ساعات الغروب.. يمسكون بكراسات اللغة العربية. يستذكرون دروسهم فى ضوء النهار.. وتكتشف داخل بيوتهم وبجوار لمبات الغاز..لوحات الاردواز السوداء يكتبون عليها بالطباشير. ويتعلمون حروف الهجاء العربية!

صورة لا يمكن أن تخطئها العين.. تماما كصورة الطبيعة هنا.. الطبيعة العذراء بكل عنفوانها وشموخها وطزاجتها.. البحر والرمال البيضاء وأشجار جوز الهند.. والنباتات الاستوائية العملاقة!

المكان.. جزر المالديف..

على الخريطة تستطيع أن تحددها.. جنوبى غرب كل من الهند وسريلانكا.. وهى تمتد من درجة ٧,١٠ شمالى خط الاستواء، الى درجة ٠,٤٥ جنوباً..

●●

والطائرة تقترب من هذه الجزر.. ترى من الجو منظراً فريداً

سلسلة من البقع اللونية وسط المحيط الهندى.. كتلة من اللون الأخضر الداكن يحيط بها شريط من اللون الأبيض.. وكل كتلة من هذه يتدرج من حولها اللون الأزرق بكل درجاته.. لون المياه فى المحيط!

وهذه الكتل.. أو البقع اللونية.. تأخذ أشكالاً مختلفة أحياناً مستطيلة.. وأحياناً دائرية.. وأحياناً مثلثة!

كل كتلة. هى فى الحقيقة.. جزيرة وسط المياه والجزر تقترب. وتبتعد عن بعضها.. وكأنها حبات عقد من الألوان.

وجزر «المالديف» تتكون من ١١٩٠ جزيرة.. تشكل «أرخبيلا» مستطيلاً فى المحيط الهندى وعندما تبدأ الطائرة فى الهبوط تتضح الصورة أكثر.. وتكتشف مدى جمال الطبيعة.. حيث تنبت الغابات الاستوائية فى كتل كثيفة.. وسط نتوءات الجزر المرجانية التى شقت أمواج المحيط وتهبط الطائرة فى أغرب مطار بالعالم.. مطار داخل جزيرة كاملة.. وممر الهبوط يقسم الجزيرة نصفين.. بحيث ترى البحر على جانبى الممر.. وأمامك.. ومن خلفك..

والجزيرة صغيرة ومخصصة بالكامل لكى تكون مطاراً ومبنى خدمات للركاب.. وهذا المطار افتتح. فى نوفمبر عام ١٩٨١.. ويحمل اسم «هولولى» .. ويبعد عن جزيرة «مالى» العاصمة بحوالى ربع ساعة يقطعها القارب.. وهو وسيلة الانتقال بين الجزر المتناثرة..

هذا المطار الحديث أعد ليستقبل الطائرات العملاقة التى تعبر خطوطها من أوربا الى آسيا.. وقد كان افتتاح هذا المطار حدثاً هاماً فى تاريخ جزر «المالديف» حيث اعتبر هذا المطار بمثابة باب للعالم الخارجى.. يسهل الانتقال من وإلى «المالديف».. وبالتالى ينشط حركة السياحة.. والتى تعتبر المصدر الثانى للدخل فى ميزانية جمهورية «المالديف» بعد صيد السمك.

••

والعاصمة «مالى» تقع فى جزيرة لا يتعدى طولها ميلين.. وهى ليست أكبر جزر المالديف.. فهناك جزيرة «جان» ويبلغ طولها أربعة أميال ونصف ميل.

أما باقى الجزر فلا يزيد طولها عن الميل الواحد..

وإذا كانت مجموعة جزر المالديف تتكون من ١١٩٠ جزيرة، إلا أن الجزر المأهولة بالسكان مائتان فقط أما باقى الجزر فهى إما غابات كثيفة.. أو مسطحات من الرمال والصخور المرجانية.

وعدد سكان جمهورية المالديف يصل إلى ١٧٥ ألف نسمة.. وأكبر تجمع للسكان يقع بطبيعة الحال فى الجزيرة «مالى» العاصمة حيث يسكنها ٤٠ ألف

مواطن.. وهؤلاء يمثلون عائلات التجار والموظفين بالمصالح الحكومية. والمدرسين. وطلاب المعاهد الدينية.

ومن أهم ملامح العاصمة.. ميناء المراكب.. وسوق السمك .. ومبنى مجمع المصالح الحكومية حيث تتجمع كل الوزارات والإدارات فى مبنى واحد.. ومبنى كلية دار العلوم (اللافتة باللغة العربية).. ويضم عدداً من القاعات المجهزة للقراءة وللندوات..

وتتلألأ تحت أشعة الشمس.. قبة مسجد العاصمة المكسوة بصفائح اللون الذهبى.

ودين الدولة هو الإسلام.

وجميع أبناء «مالديف» يعتنقون الإسلام..

ولا تمنح صفة «المواطن» إلا للمسلمين فقط.. وإن كان القانون يسمح لغير المسلمين بالإقامة الدائمة وحق ممارسة العمل.

••

يرى المؤرخون أن الشعب «المالديفى» ينتمى أصلاً إلى الجنس الآرى الذى نزحت جماعات منه (قبل الميلاد) من شمال الهند إلى سريلانكا وبقية المناطق المجاورة للهند.

بينما يرى بعض المؤرخين- لم يثبت هذا تماماً- أن هذه الجزر كان يسكنها مستوطنون قبل وصول الهجرة الآرية..

ولكن الثابت الأكيد.. أنه فى فترات لاحقة من تاريخ «المالديف».. اختلط المالديفيون بكل من العنصر العربى والعنصر الأفريقى الشرقى.. وكان الشعب المالديفى- فى الأصل- يعتنق البوذية.. حيث كشفت الحفريات الأثرية القديمة، وجود ثقافة بوذية فى المالديف خلال السنوات الألف الأولى الميلادية.. وقد تم إكتشاف أحد التماثيل البوذية، بدا تكوينه، أقرب إلى التماثيل الهندية منه الى مثيلاتها السريلانكية.. الأمر الذى يدفع الى الاعتقاد بوجود اتصالات وعلاقات ثقافية مباشرة مع الهند منذ القدم . وقد اهتدى الشعب المالديفى الى

الإسلام فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى .. من خلال داعية اسلامى يدعى «أبو البركات يوسف البربرى» الذى قدم إلى مالديف من جماعات البدو القاطنين فى شمال أفريقيا

••

ومجتمع «جزر المالديف» يشهد حالة من الاستقرار .. والقناعة التامة اكتسبت من الطبيعة النقاء والصفاء والهدوء. وتعلم من الاسلام السماحة. والرضا والأخلاق الطيبة التى لا تعكر صفوها المطامع الخاصة أو الشرور.

إنهم يمتثلون- تلقائياً- لكل التعاليم الدينية المقدسة.

بل يؤرخون الجريمة.. بآخر جريمة حدثت منذ ١٥ عاماً..وكان مرتكبها أحد الأجانب.. ويؤكدون على هذه الحقيقة بأن أبناء مالديف لم يرتكبوا أية جريمة طوال هذه السنوات.

وعندما تقترب من أبناء مالديف.. الذين يعيشون فى الجزر البعيدة عن العاصمة.. تقترب أكثر من الحياة البدائية بكل بكارتها ونقائها.. وقد أتاحت لى الظروف أن أنتقل الى إحدى الجزر البعيدة(تبعد حوالى ثمانى ساعات فى المحيط من ميناء العاصمة) وأكثر ما أثار اهتمامى.. تلك المجاميع الهائلة من الأطفال الذين خرجوا على شاطئ جزيرتهم.. يتأملون هذا القارب القادم إليهم.. وهؤلاء الزوار، الأجانب»

وعندما حط القارب بالقرب من الشاطئ.. وقف الأطفال يكتمون دهشتهم وهم يشاهدون الزوار الأجانب يسيرون بينهم.. لا أحد يعترضك.. ولا أحد يسألك..

وتزداد دهشتنا نحن.. ومرافقنا «المالديفى» يقود خطواتنا الى داخل الجزيرة.. ووجوه النساء والرجال العجائز ترقبنا فى فضول.. ولكن فى صمت. يكفى أن تلقى عليهم عبارة«السلام عليكم» فتشعر بالطمأنينة والترحيب على وجوههم وهم يردون السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. ومرافقنا «المالديفى» يدعونا لدخول منازل أهالى الجزيرة..

المنازل بسيطة جداً.. ومتواضعة.. ولكنها نظيفة جداً..

الملابس نظيفة.. ومغسولة بعناية.. والأطفال وجوههم تنبض بالحيوية وبريق النظافة.. الشعر المغسول. اللامع.. وقمصانهم البيضاء .والصنادل الخفيفة فى أقدامهم.

الدين يحض على النظافة.. وهم مؤمنون تماماً..

والمنازل تفتح لنا بلا أى سؤال أو اعتراض.. أطفال كثيرة.. والسن متقاربة.. وكأنهم كلهم ولدوا فى أعوام قليلة متلاحقة..

بعض العجائز.. يشغلون وقتهم فى صنع وزخرفة الأوانى الخشبية.. معداتهم بدائية قديمة.. يستعملون أيديهم وأقدامهم فى تشغيل تلك المعدات وطلائها.

نماذج قليلة من المشغولات اليدوية.. وعندما تبدي اعجابك بها. لابد أن تتساءل.. لماذا لا تصبح هذه المشغولات بداية لصناعة تدر دخلاً على أصحابها.. لماذا لا يصبح فى كل بيت مشغل خاص وآلات أكثر تطورا؟

وتأتي الاجابة هادئة تماماً- مثلهم- إنهم يصنعون هذه المشغولات ليس من أجل زيادة الدخل.. ولكن كنوع من الهواية والمزاج الخاص إنهم قانعون جدا بما يرزقهم به البحر.. ولا يحلمون بأكثر مما يملأ بطونهم.. ثم ينامون بلا هواجس أو أطماع!

إنهم يعيشون على الأسماك.. وثمار جوز الهند..

من الأسماك ما يؤكل طازجا.. ومملحاً.. ومجففا

ومن الأشجار ما يبنون به بيوتهم.. ويصنعون مراكبهم الصغيرة.

وتسأل عن الشباب.. أين ذهب شباب الجزيرة؟ فأغلب الذين تقع عليهم عيناك إما أطفال أو نساء أو رجال عجائز..

ويأتي الرد بأن الشباب إما انتقلوا إلى العاصمة«مالى» بحثاً عن العمل.. وإما ارتحلوا الى الجزر السياحية ليعملوا فى الفنادق السياحية.

●●

ومع تدفق حركة السياحة الى جزر المالديف.. قررت الحكومة تخصيص ٤٨ جزيرة لاستقبال السائحين..

وهذه الجزر السياحية.. مغلقة تماما أمام المواطنين العاديين.. فليس من حقهم السكن بها.. أو التعامل معها إلا من خلال «تصاريح» خاصة تصدر من المسئول الإدارى لكل جزيرة.. وهذه الجزر أصبحت تشكل حلماً أرحب بالنسبة للشباب.. فهى تمثل لهم فرصاً جديدة للعمل وإكتساب الخبرات.

ولكن حتى هذا الحلم.. ينظر له البعض.. على أنه الطريق للفساد والإنحراف.. فالاحتكاك بالسائحين قد يورث أفكارا ومعتقدات خاطئة، وخطيرة..

ولهذا تسمعهم هنا.. يتكلمون بشوق وحنين الى ليالى القمر عندما تهل على أهالى الجزر.. فيخرجون من منازلهم.. يتسامرون فى حب وإخاء وكيف تنسحب هذه الليالى الجميلة أمام حلم الهجرة الى الجزر السياحية.. والتى تضاء بالمولدات الكهربائية.. ويسود فيها صوت شرائط الكاست بالموسيقى الغربية! والمشكلة قد تبدو رومانسية. ولكنها بالتأكيد أحد تحديات التطور.. التى يواجهها رئيس جمهورية «المالديف» الحاج مأمون عبد القيوم.. ومعه البرلمان والأجهزة التنفيذية.

ورئيس جمهورية المالديف الحاج «مأمون عبد القيوم».. من عائلة متوسطة فى «مالى».. ولد عام ١٩٣٧.. وقضى فترة من صباه وشبابه الأول فى مصر.. تعلم فى الأزهر الشريف.. ثم استكمل دراسة القانون والفلسفة من الجامعة الأمريكية فى القاهرة.. وحصل أيضاً على شهادة القانون الاسلامى والفلسفة من جامعة «أحمد وبيلو» بنيجيريا من عام ٦٩-٧١.

وقد انتخب رئيساً لجمهورية المالديف فى عام ١٩٧٨

ويعتبر رئيس الجمهورية هو رئيس الدولة. ورئيس السلطة التنفيذية فى نفس الوقت.. ويتم ترشيحه من قبل مجلس الشعب أولاً عن طريق الاقتراع السرى.. ثم يطرح للإنتخاب الشعبى فى استفتاء عام.

وفيما يتعلق بالسلطة التشريعية فهى تتركز فى مجلس الشعب الذى يتكون من ٤٨ عضواً، يعين الرئيس ثمانية أعضاء منهم.. ويتم اختيار الباقى بواسطة

الانتخابات العامة بحيث يكون عضوان من «مالى» - العاصمة - ثم عضوان من كل مجموعة جزرية. وجزر المالديف مقسمة الى ١٩ اقليماً. يرأس كل منها رئيس مسئول يتم تعيينه من قبل رئيس الجمهورية.

••

ولأن الجزر متناثرة.. ومتباعدة فى المحيط الهندى.. (تمتد مساحة ٨٢٠ كيلو متراً طولاً و ١٣٠ كيلو متراً عرضاً.. وتشغل مساحة كلية قدرها ١٠٦,٦٠٠ كيلو متر مربع.. تحتل اليابسة منها ٢٩٣ كيلواً متراً مربعاً فقط)..

لذلك تعتبر رحلة التنقل من جزيرة الى أخرى.. رحلة لا يقوم بها المواطنون إلا لظروف قصوى.. فكل جزيرة تعتبر مجتمعاً مستقلاً متكاملاً..

ولكن بالنسبة للسائح - مثلى - فرحلة التنقل بين بعض الجزر.. كانت فرصة نادرة للاستمتاع برؤية الأنواع النادرة من الأسماك وهى تسبح تحت الماء.. ونظراً لشفافية الماء وخصوصاً بالقرب من شواطئ الجزر.

أما فى أعماق المحيط.. فقد تصادف مجموعات «الدرافيل» وهى تسبح بجوار بعضها.. وتقفز فى الهواء للحظات.. ثم تختفى تحت الماء.. وقد تصادف بعض أنواع السمك الطائر.. الذى يشق الأمواج ليطير فى الهواء لمسافة طويلة ثم يعود مرة أخرى إلى الماء.

وهواة الغوص فى أعماق المحيط والذى يأتون من أنحاء أوربا فى مجموعات سياحية.. يمارسون رياضتهم ويتحدثون عن مشاهداتهم المثيرة.. وبعضهم يستغل هوايته فى تصوير الأفلام السينمائية العلمية تحت الماء.. أو يؤلفون الكتب.. ولكن مهما قرأت.. أو سمعت.. إلا أن المشهد الذى لا يمكن أن تتخيله.. هو كيف تضاء، أمواج المحيط ليلاً بوهج الفسفور.. عندما تتكسر الأمواج على حافة القارب.. فيبدو ضوء الفسفور كحبات من الماس.. أو تشكيل من النجوم المتلألئة وسط المياه.

••

ومنذ عام ١٨٨٧ وجزر المالديف كانت محمية بريطانية وذلك بموجب الاتفاقيات المبرمة بين السلطان محمد معين الدين والحاكم البريطاني في سيلان.. وكانت ماليف تدفع، بمقتضى هذه الاتفاقية، اتاوة سنوية للحاكم البريطاني في سيلان.. ثم توقفت عن الدفع منذ سنة ١٩٤٨. حيث منحت شكلاً من اشكال الحكم الذاتي.وفي يوم ٢٦ يوليو ١٩٦٥. أصبحت «ماليف» دولة مستقلة ذات سيادة، بعد التوقيع على اتفاقية الاستقلال بين«ماليف» والمملكة المتحدة.

ومما هو جدير بالذكر أن «ماليف» لم يقم بها أى حاكم أو مندوب إدارى بريطاني، طيلة فتر الحماية.. باستثناء سنوات الحربين العالميتين الأولى والثانية. حيث اتخذت بريطانيا تسهيلات عسكرية لها في الجزر الواقعة على الأطراف الشمالية والجنوبية.

وقبل فترة الحماية البريطانية.. يذكر تاريخ «ماليف» أنها تعرضت لفترة استعمار برتغالى. استمرت ١٧ عاماً ابتداء من عام ١٥٥٨.. حيث كانت «ماليف» تابعة في تلك الفترة للحاكم البرتغالي المقيم بالقواعد البرتغالية في «جو» بالهند.

ويحكى تاريخ «ماليف» عن ثورة الشعب المالديفي عام ١٥٧٤ بقيادة «محمد تاكوروفان الذى يعتبرونه من ألمع الأبطال والذى نظم كفاح أبناء ماليف لطرد البرتغاليين من أرضهم.

●●

هذه بعض ملامح من الدولة الاسلامية«ماليف» التى تتشبث بلغة القرآن.. وروحه وإذا أدركنا أن ٦٠ في المائة من مجموع السكان. تقع أعمارهم تحت سن العشرين..لاستطعنا أن نقرر حجم التحدى الذى تواجهه هذه الدولة في مجال التنمية والبناء.. ولاستطعنا أيضاً أن نفهم معنى حرصهم على تعليم اللغة العربية.

إنه باختصار.. اضافة لرصيد المستقبل.

أوراق من رحلة إلى بيروت - نوفمبر ٦٣

يوم أحد فى قرية الفن !!

اليوم.. الأحد..

وطريق الجبل مزدحم بسيارات منطلقة، في محاولة التخلص من روتينية الحياة اليومية.

كل شخص داخل سيارة، حاول في أعماقة قبل ان يرحل من المدينة ان يلقى بمتاعب ٦ أيام وراءه.. واستعد لان يجدد نشاطه في اليوم السابع برحلة.. أي رحلة خارج المكتب الذى يعمل به.. والشارع الذى يسير فيه.. والبيت الذى يسكنه..

ورحلة اليوم السابع، يوم الاحد.. بالنسبة لكثير من الأسر اللبنانية.. شيء مقدس..والسيارة التى تحملنا.. فيها اربعة اشخاص.. ليلى عسيران الاديبة اللبنانية.. ووجيه رجل الأعمال اللبنانى وصاحب السيارة وزميلى الفنان الرسام بهجت .. وأنا..

وفكرة الرحلة من اقتراح الصديقة ليلى عسيران.. فليلى كفنانة تكتب القصة.. لها كل عادات الفنانين.. القلق.. والحساسية الشديدة... والاخلاص.. وهي مخلصة جداً لاحياء القاهرة القديمة.. وخصوصاً حى الأزهر والحسين ووكالة الغورى.. وعندما تأتى الى القاهرة.. ويسمع أصدقاؤها الفنانون بمجيئها.. فان احسن هدية ممكن أن يقدموها لها.. ان يصحبوها الى الاحياء القديمة.. فتبدو كطفلة صغيرة قدموا لها اعز شيء تطلبه..تفرح وتضحك من أعماقها. فهى تعتبر ان زيارتها لهذه الاحياء ما هى الا رحلة تأمل داخل معبد.. اسمه التاريخ.. وارادت ليلى أن ترد هديتنا لها..فاقترحت فكرة هذه الرحلة.. رحلة الى قرية بالجبل تعيش تجربة فنية جديدة..

وفرحنا جدا بالهدية..

••

ساعتان تقريبا.. والسيارة تصعد الجبل.. تجرى على شريط أسود كأنه من القطيفة السمراء.. ملفوف حول جسد الجبل.. يحزمه برفق.. والطبيعة ترقص من حولنا فرحة بنفسها..

ويبدو ان الطبيعة قد تعبت جداً.. وهى تصنع هذا المكان، انها تضع الاخضر بحساب.. والأزرق بحساب.. والألوان تتداخل لتصنع لوحة جميلة لاتنساها ابدا.

لقد تعبت الطبيعة.. حتى ينسى الانسان تعبه..

●●

راديو السيارة يغنى.. ونحن نغنى.. من الممتع جداً، ان ينطلق الانسان بالغناء. انه يذيب طبقات الصدأ التى تعلو الحنجرة من كثرة الحديث عن المشاكل..

على منحنى فى الطريق.. وقف تمثال ضخم. ونزلنا نتأمل التمثال.. ونظرنا تحتنا.. وفزعنا.. لاشىء.. اننا نقف على صخور من الجبل.. وتحتنا واد عميق.. شديد الاخضرار.. والتمثال الضخم موضوع بعناية على حافة الصخور..

قالت لنا ليلى..

- هذا التمثال.. بداية قرية الفن.. قرية «راشانا»

والسيارة تتمهل فى سيرها.. لتقف بين لحظة وأخرى لنصافح تمثالاً جديداً على جانب من الطريق..و.. فى كل مترين تمثال.. ونصافحه بعيون متلهفة تبحث عن سر هذه القرية..

ووصلنا الى مكان لا يمكن ان نسير بعده بالسيارة.. ووقفنا امام منزل انيق تحتضنه التماثيل.. وهتفت ليلى ومعها وجيه..

-استاذ ميشيل.. استاذ ميشيل..

وانفتح الباب.. وطلت سيدة عجوز.. وشابة.. ورجل يرتدى البدلة والكرافت.. وبضع دجاج يقفز على الأرض.. يبحث عن حبة بين الزرع الاخضر.. والزلط المرصوص على الأرض. كأنه بساط ملون.. وتقدم الرجل تسبقه ابتسامة..

- ميشيل ما موجود.. هلا تفضلوا.. قالت ليلى:

- تكرم.. معنا ضيوف من القاهرة.. وابتسم لنا الرجل.. ابتسامة هادئة وقورة.. وفرد ذراعيه..

-اهلين وسهلين.. مرحبا فيكم..

والمكان هادئ جداً.. اننا نكاد نسمع انفاسنا.

وعرفنا الرجل بنفسه.. ألفريد بصبوص شقيق ميشيل.. والاثنان هما الفنانان اللذان استضافا الفن فى هذه القرية..

والفريد يبتسم.. ويداه مفرودتان.. يدعونا للدخول.. ونحن يبدوأننا نسينا الكلام.. وهنا.. ليس من الغريب ان ينسى الانسان لسانه.. فكل شيء حولك فى هذا المكان، لايدع لك وقتا للكلام.. بل كل الوقت للتأمل..

اننا فوق ربوة عالية.. اشجار من حولنا.. الاخضر يضمنا.. الأزرق تحتنا.. مياه البحر لها ألف لون من الأزرق.. على جانب من الربوة، كنيسة بيضاء صغيرة، كأنها فستان زفاف داخل حفل العرس الذى صنعته الطبيعة.. وهدوء.. هدوء شامل.. وألفريد مازال يبتسم.. ويداه مفرودتان.. تدعواننا للدخول.

••

دخلنا المنزل.. وخرجنا من باب خلفي يؤدى الى حديقة.. والحديقة مزروعة بالأشجار.. والتماثيل.. تماثيل من الرخام.. والخشب.. والأحجار.. والتماثيل كلها لأفكار تجريدية..

ثم دخلنا الى حجرة الولادة.. أو «الاتيليه» بلغة الفنانين.. هذا المكان الذى تدخله الاحجار والاخشاب.. وتخرج منه تماثيل رائعة الصنع..

فى الاتيليه تماثيل انتهت.. وتماثيل تنتظر اللمسات الأخيرة.. واستكشاف ورق لمشاريع تماثيل جديدة..

قال لى الفريد.. وهو يشير الى تمثال ضخم فى دور التكوين..

- لقد احضرنا صخرة تزن ١٥ طناً، لنصنع منها هذا التمثال..

والفريد يحكى، انه عندما تغرب الشمس على هذه القرية.. فإنه يترك الاتيليه هو وأخوة ميشيل.. ويتجولان فى الجبل بحثا عن صخور جديدة.. عن قطعة رخام.. لمشاريع تماثيلهم القادمة..

وألفريد يأخذنا الى مكان آخر بالقرب من الاتيليه.. إلى مكان عبارة عن سطح مستو من الخرسانة. ينتهي ببضع درجات، وسطح آخر من الخرسانة..

- هذا مكان مسرح القرية.. هنا على المسرح يقام المهرجان السنوى لراشانا.. فى السنة الماضية قدمنا مسرحية ماكبث. فى هذه السنة قدمنا «الجريمة والعقاب».. وفى المهرجان.. يقام ايضا المعرض السنوى لنا.. والتفت الفريد ناحية اليمين.. ثم اشار بإصبعه..

- وهنا ستبنى بيوت الفنانين..

والتفت الى الامام.. وأشار بإصبعه..

- وهنا سنشق طريقاً جديدة.. ونقيم مكتبة.. وصالة للاجتماعات.. والتفت الى الخلف.. واشار بإصبعه..

- وهنا.. قاطعته..- أرجوك.. لقد زغللت عينى.. أرجوك.. نجلس ونتحدث.. ابتسم الفريد.. وفرد ذراعيه..

- أهلين.. تكرم..

●●

على مقعد من الصخر جلسنا.. وبدأ ألفريد يلف سيجارة من كيس التمباك الذى يحمله معه.. ويبدو أنه يجد لذة فى ضم التمباك بين يديه.. ويلفلفه بالورق.. ويبلل اطرافه.. كأنه يصنع تمثالا..

وبدأ يحكى حكايتهما.. هو وأخوه..

- خرجنا الى الحياة.. فوجدنا أن جدنا خطاط.. ووالدنا كاهن فى كنيسة.. وحولنا طبيعة رائعة..

مازالت أذكر المبخرة التى كان يصنع فيها والدى البخور فى الكنيسة.. كان اخى ينتظر نهاية القداس.. ثم يتسلل الى المبخرة ويجمع نهاية الشمع الذائب.. ويدخل حجرته ويصمم من الشمع أشكالا مختلفة.. كان عمره حينئذ ٧ سنوات.. وكنت أنا فى الثانية.. وكبرنا.. وكبرت اصابعنا.. وأصبحت اصابع نحاتين.. دخل أخى مدرسة الفنون الجميلة ببيروت وظل بها ٤ سنوات..

ثم سافر الى باريس.. مدرسة الفنون ايضاً لمدة سنتين.. وسنة ثالثة عند احد الفنانين الفرنسيين المشهورين واسمه زاتكين.. وسنة رابعة على نفقته الخاصة.. ثم عاد الى بيروت.. وأصبح عنده اتيليه خاص به.. استمر يعمل فيه ٥ سنوات.. ثم عاد الى القرية.. الى راشانا.

••

أما أنا.. فقد درست سنة بالفنون الجميلة بباريس.. ثم عدت الى راشانا..

لماذا عادا الى القرية..

لماذا تركا المدينة بأضوائها وضجيجها وفرص الكسب فيها.. وعادا الى القرية.. التى لم تدخلها الكهرباء.. والتى تبعد عن بيروت حوالى ٦٠ كيلو مترا..

لماذا عادا الى القرية..

هذا هو الموضوع..

لقد احسا ان الفنان الذى يترك قريته ليذل نفسه فى المدينة.. ويضيع وسط زحامها، بعرض انتاجه.. فنان فى الواقع ليس مخلصاً لفنه.. ان الفنان لا يجرى وراء الجمهور ليبيع لوحاته.. وانما الجمهور هو الذى يبحث عن الفنان.

واذا كان هذا النوع من الجمهور، ليس الاغلبية.. فلماذا لا يعيش الفنان فى قريته يخدمها بفنه...على الأقل كنوع من الاخلاص للقرية.. ولسكانها البسطاء الطيبين الذين لم تفسدهم تزويقات المدينة!

ثم.. هناك سؤال آخر.. لماذا يجرى الفنان الى المدينة.. ولا يجرى اهل المدينة الى القرية ليبحثوا عن الفن والفنان!

لماذا تصبح المدينة متخمة بالمعارض ومراسم الفنانين.. وتظل القرية محرومة من الفن.. بالرغم من أن نداء الطبيعة فى القرية أكثر حرارة وصدقاً!!

وقرر ابناء بصبوص.. ان يجعلوا من قريتهم«راشانا» معرضا.. ومتحفا.. ومسرحاً..وباختصار.. مكان يعيش فيه الفن.. ويجبر أهل المدينة أن يصعدوا من منازلهم المتجاورة.. وشوارعهم الضيقة.. يصعدوا الى الجبل بالساعات.. لكى يعيشوا لحظات مع فن راشانا..

وبدا ابناء بصبوص فى العمل .. وبدأ أهل المدينة يصعدون الجبل .. وعرفوا اسم راشانا .. وأصبحت هذه القرية من أشهر قرى لبنان ..

الفريد يحكى على احلام «راشانا» .. كما يتصورها هو وأخوه .. يحكى .. وهو يقدم لنا فنجانين من القهوة وماء .. ممزوجاً بماء الورد.

- كانت فكرة أخى .. ان نقيم تماثيل ترمز الى الفنون الجميلة السبعة ..

وفكرنا ان نقيم متحفاً وصالة عرض للفنانين من البلاد العربية والفنانين الأجانب ..

ان هناك فنانين كثيرين يأتون من بعض بلاد العالم .. ليقضوا بعض الأيام فى راشانا .. ونحن نعطيهم المكان الذى يقيمون فيه .. ونطلب منهم النهاية .. أن يتركوا احدى قطعهم الفنية التى صنعوها هنا .. لنحتفظ بها ..

ولدينا الان بعض اعمال فنان ايرانى .. وفنانة من الارجواى .. وبعض الفنانين العرب ونحن فى انتظار فنانة من اليونان .. وفكرنا أيضاً .. ان نقيم هنا بيوتا للفنانين .. بيوت يقضى فيها الشاعر أو الرسام أو النحات بعض الأيام .. ليستريح .. ويجدد نشاطه .. ويعمل .. ان أمنية كل فنان أن يجد مكانا هادئا ملتصقا بالطبيعة ليعمل فيه .. وينتج فنه ..

وهتف بهجت ..

- صحيح .. ان اى فنان فى العالم .. لا يتمنى أكثر من عش فى مكان مثل هذا .. وبهجت ان كنتم لا تعلمون .. فى حقيقته يهوى النحت اكثر من الرسم .. وأسعد لحظاته هى التى يقضيها بين الأزميل والحجر .. ينحت تمثالاً ..

والفريد يكمل كلامه عن احلام راشانا ..

- بيوت الفنانين .. مشروع سيتكلف كثيراً .. قلنا للدولة اننا سنتبرع بالأرض .. فوعدتنا الدولة أن تقدم ٣٠ ألف ليرة لانشاء هذه البيوت .. ولقد ساعدتنا الدولة فى نواحٍ أخرى .. مثلا انفقت ٨٠ الف ليرة فى شق طريق من بداية القرية الى قلب الضيعة حتى يسهل عملية الوصول اليها .. وانفقت أيضا ١٠ آلاف ليرة لتسوية المسرح ..

والفريد يبتسم و . .

- وفى خيالنا مشروعات كثيرة من أجل الفن فى راشانا . . مثلا نريد أن نقيم صالة كبيرة للاجتماعات والمحاضرات . . تحدث فيها مناقشة لاحسن كتاب . . وتعطى جوائز باسم راشانا ولأحسن قصيدة . . ولأحسن مسرحية . . واحسن مخرج . . وجوائز باسم راشانا «وراشانا» فى فمه كنغم حلو . . كاسم حبيبة . . يريدون لها . . ويريدون . . و . . تصبح قرية فن . . وتصبح كل قرى لبنان «راشانا» . .

••

فى هذه اللحظات . . عدت بافكارى الى القاهرة . .

ماذا يحدث لو عاد بعض فنانينا الى قراهم . . فى الصعيد أو الوجه البحرى . . واعطوا قراهم كل فنهم . . يستمدون الفن من الطبيعة الحية المتحركة حولهم . . وينتجون فنا يخدمون به قريتهم . . وأهاليها . . بدلا من أن يتركزوا كلهم فى القاهرة . . وتصبح مشكلتهم انهم لايجدون المعرض أو المسارح التى تفتح ذراعيها لهم . .

فى هذه اللحظات . . تذكرت ايضا الفنان «صمويل هنرى» ذلك النحات العبقرى الذى ترك القاهرة بكل اغراءاتها . . وذهب الى النوبة . . خلع ملابس المدينة . . وارتدى ملابس النوبيين . . وسمى نفسه «آدم» وعاش بينهم . . عاش فى النوبة بعاداتها وتقاليدها . . وأفراحها . . وآلامها . . وبدا يرسم . . فخرجت خطوطه تنبض بالحياة والصدق والدفء . . دفء الواقع . . وصدق الاصالة .

••

قلت لالفريد بصبوص . . وأنا أتجول معه داخل مرسمه . . هو وأخوه ميشيل . .

- ألم تنهزم اطلاقا امام اغراءات المدينة . . وضجيجها واضوائها . . وملاهيها . . ألم تفكر أن تترك القرية وتعود الى حياة المدينة . .

هز رأسه باستنكار :

- ابدا .. ان قريتى هى عالمى .. هل تعرف ماهى أزمتى الحقيقية ..أزمتى الحقيقية .. إننى احس دائما ان الطبيعة أعظم وأجمل الف مرة من كل الأعمال التى ننفذها ..

قلت له : هل تهتم باخبار السياسة ..

- لا .. أنا غير متتبع لها .. وعندما انزل ببيروت وأفاجأ بعشرات الجرائد والعناوين الضخمة .. اشعر أنى مأسور .. كأنى داخل حلقة يجرى فيها الناس ويتزاحمون ويتصارعون ..وأحس برغبة شديدة فى العودة الى القرية .

●●

ونحن نترك «راشانا» القرية الفنانة فى جبين الجبل العالى .. اقرب مكان إلى السماء ..كانت التماثيل تقف على جانبى الطريق كأنها تودعنا .. كأنها تقول لنا .. عودوا مرة أخرى لزيارتنا .. وكنا نغنى .. الاغنية التى كتبها صلاح جاهين .. ورددها عبد الحليم حافظ .. وتماثيل رخام على الترعة، وأوبرا .. فى كل قرية عربية ..

دى مش أمانى .. وكلام اغانى .. دى مسئولية ..

●●

ملحوظة .. هذه الرحلة عشتها وسجلتها منذ أربعين عاماً .. ورغم أننى لم أتابع ما حدث فى هذه القرية الجميلة طوال هذه السنين .. إلا أن المشاهد والعبارات مازالت حية فى ذاكرتى ، استعيدها بين الحين والآخر شوقاً وحنيناً إلى زمن عشق الفن والإخلاص له .

حباً فى السينما

ربما جهلاً منى . . فهذه أول مرة أعرف أن هناك مهرجانا سينمائياً يقام فى مدينة «روتردام» الهولندية !

وعندما تلقيت دعوة من ادارة المهرجان للمشاركة فى أعماله . . فوجئت بأن هذا المهرجان يقام سنوياً . . وأن هذا العام هو الثانى عشر من عمره ! ! . . وأنهم يحتفلون هذا العام بالسينما المصرية ، ويعرضون فى المهرجان عشرة أفلام من تاريخ السينما المصرية !

وبدأت أبحث فى الخريطة عن موقع «روتردام» .

وسرت البرودة فى جسدى . . انها قريبة من سقف العالم . . واذا كنا هنا فى القاهرة نتكتك من شدة البرد ، فما الذى سيحدث هناك ؟ !

كان الموضوع كله بالنسبة لى . . أشبه بمغامرة فى زمن أصبح يحكمه الركود والتبلد !

ولكن هناك كانت المفاجأة !

مفاجأة المكان . . ومفاجأة المهرجان . . ومفاجأة اكتشاف حركة الثقافة والفن خارج نطاق الأسماء اللامعة ، حيث يتجمع هؤلاء الذين يحفرون بأسنانهم وأظافرهم طريقاً خاصاً للتعبير عن مأساة العالم الذى نعيشه !

••

«روتردام» ثانى أكبر مدينة فى هولندا بعد «امستردام» العاصمة .

وتشتهر روتردام بأنها أكبر ميناء فى العالم . . وقد تحطم أغلب مبانى ومرافق المدينة أثناء الحرب العالمية الثانية . . تحولت إلى كومة أنقاض . . ولكن بقوة وإصرار أبنائها أعيد بناؤها من جديد لتصبح المدينة فضلا عن مينائها الضخم الحيوى ، مدينة صناعية هامة ومركز توزيع رئيسى لأسواق أوربا الغربية !

ومن هنا كانت الملاحظة التى لا تخطئها عين الزائر لمدينة «روتردام» أن أغلب مبانيها على الطراز الحديث ، وان كانت لا تعترف بناطحات السحاب ، بل تحتفظ بإرتفاع محدد لا تتجاوزه . . وتتميز المساكن بالنوافذ الزجاجية العريضة التى تكشف عما وراءها ، وغالبا ما يكون هذا الذوق الرائع فى تشكيلات

الستائر البيضاء التى تنفرج عن صف من أوانى الزهور الملونة والنباتات الخضراء.

ولا يمكن أن ترى نافذة بدون زهور.

واذا كانت هولندا هى حديقة الزهور لأوربا كلها.. فإن أهلها لا يتعاملون مع الزهور كسلعة للتصدير.. ولكن بإحساس من الحب والجمال فالزهور هى عنوانهم ولغتهم اليومية التى يتبادلونها كعشاق قصص الحب الرومانسية.. فالزهور على مكاتب العمل« وعلى موائد الطعام» وعلى نواصى الشوارع فى أشكال شديدة البساطة والأناقة، ولكنها شديدة التوهج بألوان وأشكال متنوعة تجبرك على التوقف، وامتصاص التوتر والقلق بداخلك!

وفى داخل السوق الحرة بمطار امستردام، هناك أكثر من محل لبيع الزهور والأبصال والبذور للمسافرين.. وأعترف أننى توقفت طويلا أمام هذه المحلات، وتذكرت ما قاله لى بعض الأصدقاء الذين عرفوا بحكاية سفرى الى هولندا «حتجيب لنا ايه وانت هناك؟! طبعاً ما فيش غير السمن الهولندى والجبن الهولندى!«وضحكت وأنا أتخيل نفسى أعود لهم ببعض الزهور.. انه ترف لا نقبله ولا نتحمله.. فلا يملأ عيوننا غير حقائب مكدسة بالملابس!

••

وأسواق «روتردام» تعرف هذا النوع من الزوار، ولا ترضى أن تصدمهم.. فهناك البضائع من كل انتاج أوربا.. وأفرع لأشهر وأكبر المحلات الانجليزية والألمانية والفرنسية والأمريكية أيضاً.. وهناك سوق حديث يشغل مربعاً هائلاً فى وسط المدينة، مقسم كله الى ممرات ومحلات تجارية ومطاعم، وممنوع تماماً دخول السيارات الى هذه المنطقة، فالتخطيط الهندسى لها يضمن حرية الحركة للمشاه ولا يعطل متعة التوقف أمام الفاترينات، أو الجلوس على المقاعد الخشبية فى وسط الطريق وتأمل التماثيل الحديثة من تشكيلات الألمونيوم والنحاس، وأيضاً الاستماع إلى عربات الموسيقى التقليدية المشهورة فى هولندا، التى تشبه سيارات الميكروباس ولكن مزينة كلها من الخارج برسوم ملونة وتماثيل صغيرة

تتحرك مع أنغام الموسيقى التى تتدفق من خلال اسطوانات تدار إما باليد : أو بمولد كهربائى . . انها خليط من البيانولا والسفيرة عزيزة ! !

وأصحاب هذه العربات الموسيقية يدفعونها باليد الى حيث أماكن التجمعات . . ويطلقون الموسيقى بينما يخلعون قبعاتهم ويضعونها على الأرض فى انتظار من يلقى بداخلها ببعض القروش ! ولكن ابداً لا يطاردونك فى استجداء مزعج !

إنها مدينة لا يمكن الا أن تحبها . . فهى تشعرك بالألفة والأمان . . بعكس التحذيرات التى سمعناها كثيراً عندما زرنا مدينة «أمستردام» العاصمة الهولندية . . فهم يحذرونك من جرائم السرقة والاختطاف والعنف .

وعصابات السرقة والعنف . . أصبحت مشهورة الآن فى دول أوربا الغربية كلها ، كنتيجة لازدياد البطالة مع الارتفاع المستمر فى الأسعار .

ولكن مازالت مدينة «روتردام» تحتفظ بهدوئها وجمالها . . فهى مدينة لا يزيد عدد سكانها عن نصف مليون نسمة . . أى حوالى ربع سكان حى شبرا فقط ! !

ومع اتساع الشوارع وانبساط المدينة على رقعة هائلة . . تكاد تشعر فى السابعة مساء بعد العودة من العمل . . أن المدينة شبه خالية . . وكأنها ديكور سينمائى مضاء ونظيف ولامع ينتظر اشارة المخرج أن يبدأ التصوير . . ليخرج السكان من منازلهم ، وتنفتح أبواب المحلات والمنشآت . . وتدب الحياة !

وفى كل مرة كنت أتجول فى المدينة ليلا . . كان ينتابنى هذا الاحساس . . ولكن المدينة لا تعود الى الحركة والحيوية . . الا فى الصباح . . حيث تلمح عددا كبيرا من السكان يخرجون من منازلهم فى الظلام يركبون دراجاتهم ويحكمون الغطاء فوق أجسادهم ورؤوسهم وينطلقون الى العمل . .

الدرجات هى الوسيلة الشعبية للانتقال . . وهناك ممرات خاصة بها فى كل الشوارع . . وهناك أيضاً أماكن انتظار لها أمام كل المبانى ولا تستغرق حركة الذهاب الى العمل أكثر من نصف ساعة . . لتعود المدينة الى هدوئها وصمتها . .

ولا يقطع هذا الصمت الا خروج الزوار والعجائز من السكان لقضاء حاجاتهم اليومية.. ولا يحدث هذا إلا بعد العاشرة صباحاً غالباً..

فالشمس هنا لا تشرق أيام الشتاء الا بعد التاسعة صباحاً !الليل طويل جداً.. أكثر من ١٥ ساعة..

والرياح في الشتاء، قوية وعنيدة.. تضربك بعنف من كل جانب وتحاول أن تقلع أقدامك من على الرصيف لتقلبك جانباً..

والأمطار لا تكاد تتوقف.. حتى تعود.

وبالرغم من هذا الجو الشديد البرودة.. الا أنك لا تشعر بالتعب والإعياء.. فالهواء نقي.. ونسبة التلوث تكاد تكون معدومة..

••

ومع هذا الليل الطويل، والرياح الباردة والأمطار.. يصبح عليك أن تحبس نفسك داخل البيت إما مع برامج التليفزيون التى تبدأ من السادسة مساء وحتى الحادية عشرة مساء وتذاع من ثلاث قنوات.. وأغلب هذه البرامج يشكو منها سكان هولندا، ولا يديرون ازرار أجهزتهم الا مع نشرات الأخبار والأفلام والمسلسلات الأجنبية.

البديل الثاني أن تمسك كتابا لتقرأه..

أما دور السينما فلا تجد إقبالا ملحوظا.. الا بين جيل الشبان.. وحتي هؤلاء الشبان- كما قال لي صحفي هولندى- أصبحت أذواقهم متقلبة.. وكأنهم يبحثون عن شيء مفقود.. وكانت النتيجة أن أغلقت بعض دور السينما أبوابها!!

ويجيء مهرجان «روتردام» السينمائى فى هذا الوقت من العام (من ٢٨ يناير إلى ٦ فبراير) ليبعث بكثير من الدفء فى المدينة، ويخلق نوعاً فريداً من الاتصال والمشاركة والحيوية، ويعطى مادة متجددة للحوار والمناقشة.. ويغرى سكان المدن المجاورة للانتقال إلى روتردام، بالإضافة إلى عدد الزوار والضيوف الأجانب الذين يشاركون فى هذا المهرجان ويساهمون فى إنعاش الحركة التجارية بالمدينة.. حتى أن فندق هيلتون روتردام - حيث كنا ننزل - اخترع قائمة طعام

بمناسبة المهرجان من بين أطباقها «شوربة» سينما - وطبق آخر بعنوان «المهرجان» !

••

وبعيداً عن الظواهر السياحية والتجارية.. يبقى لمهرجان روتردام السينمائي، مذاقه الخاص، واحترامه الذى يفرض نفسه منذ أول يوم وحتى آخر عروضه السينمائية.

إنه مهرجان يقف مع السينما التى تعكس المشاكل الحقيقية في دول العالم.. ويبحث عن الأفلام التى صنعها فنانون لا يعرفون طريقهم - وأيضاً لا يحبون - أن يدخلوا فى متاهات شركات التوزيع التجارية.. أو بمعنى أدق يبيعوا حياتهم وأفكارهم للحيتان الضخمة !

مهرجان جاد.. لا يرفع شعاراً مكتوباً.. ولكن تشعر من خلال اختيارات أفلامه.. أنه مهرجان للسينما التى تدافع عن حرية الإنسان وكرامته.. سواء أكان هذا الإنسان فى أمريكا أو فى بولندا.

مهرجان له صبغة اشتراكية.. ولا دهشة فى هذا.. فهولندا رغم نظام الحكم الملكى.. إلا أنها بقوة الطبقة العاملة فيها استطاعت أن تدير دفة الحكم الفعلي إلى النظام الاشتراكى..

وعلى حد تعبير «هوبرت بالسى» مدير المهرجان.. أن الأفلام التى اختارها للعرض راعى فيها شيئين.. أن تكون فنا جيدا.. وأيضا أن تقول فكرا إنسانياً متقدماً..

ومدير المهرجان «بالسى».. شاب فى منتصف الأربعينيات.. شديد الحيوية والذكاء.. سريع النكتة.. يعرف الكثير عن السينما العالمية.. دهاليزها وكواليسها.. ويعرفه أكثر شبان الفن السينمائى الذين يبحثون عن عقل متفتح يحتضن تجاربهم وأعمالهم.

وهو رجل لا يكف عن العمل.. يستطيع أن يعمل عشرين ساعة في اليوم.. أحسست وأنا أتابع تحركاته داخل المهرجان وهو يرتدى القميص والبلوفر.. أنه لا يمثل صورة المدير كما نعرفه في مصر.. أنه هنا دائب الحركة بين صالات

يمسك مقشة ليكنس الأرض.. فهذا المهرجان هو رسالته الثقافية والفنية التي يعمل لها طوال العام لا سأم!

وهو لا يؤمن بالمهرجانات التي تقيم المسابقات وتعطي الجوائز.. فعلى حد قوله «من بين الأفلام بالقطع ستجد هناك فيلماً جيداً جداً.. وفيلماً آخر لا يقل عنه في الدرجة.. فكيف أعطي جائزة لواحد منهما وأحرم الآخر.. إن الجوائز لعبة مليئة بالمتاهات ونحن لا نحب الدخول فيها!!

وميزانية مهرجان «روتردام» تزيد عن ربع مليون دولار.. وتتحمل بلدية مدينة روتردام الجزء الأكبر من هذه الميزانية.. ولا يتضمن هذا الرقم مرتبات العاملين في هذا المهرجان. وكما يقول مدير المهرجان «لكي تحقق التوازن في الميزانية.. فنحن نعتمد على بيع التذاكر للجمهور.. من هذا الجانب نتوقع أن تكون الحصيلة حوالي ٧٠ ألف دولار.. نستخدمها في تغطية مصاريف السفر وإقامة الضيوف من المخرجين.. وأيضاً ننفق جزءاً منها في أجور الموظفين الذين يعملون معنا في فترة المهرجان وعددهم يصل إلى ١١٠ أشخاص»!

إنه يتكلم بصراحة شديدة.. بل ويطبع هذه الكلمات في نشرة خاصة توزع على الضيوف.

فليس هناك أسرار.. ولا حرج.. ونجاح المهرجان ليس نجاحاً لفرد.. بل نجاحاً لفكرة!

والمصارحة بالمشاكل.. تدفع الجميع لمعاملة المهرجان باحترام وحب.. وأيضاً تخلق الإحساس بالحرص على استمراره.

أوراق من رحلة إلى ألمانيا - ديسمبر ٩٥

الحائط مازال فى الرأس !!

بابا نويل يتعقبك مداعباً، ولابد أن تبتسم.. وما أن تبتعد عنه قليلاً حتى تفاجأ وبابا نويل آخر يقف على ناصية الشارع.. بابا نويل ثالث وعاشر على أبواب المحلات التجارية.. وحالة من البهجة تسيطر على الجميع رغم برودة الجو، ودرجة حرارة تحت الصفر.. فالدفء الداخلى أقوى.. مع كل هذه الأضواء. وأشجار أعياد الميلاد التى تغطيها نجوم صغيرة من لمبات كهربائية متناثرة فى إيقاع ساحر.. وترتفع عناقيد النجوم الصغيرة على واجهات المبانى لتحيل ليل برلين إلى كتلة من النور والألوان والحيوية.

وعشرات من الدكاكين الخشبية الصغيرة.. انتصبت فى الساحة المجاورة لكنيسة برلين الأثرية التى قصفتها قنابل الحرب العالمية الثانية، وتركوها كما هى مهدمة.. مشوهة بالسواد والأنقاض.. كشاهد لا ينسى - ولا يجب أن ينسى - عن ضراوة الحرب وبشاعتها.. وأقاموا بجوارها كنيسة حديثة من المعدن والزجاج المرسوم على هيئة برج معمارى.. وما أن يضاء من الداخل ليلاً، حتى تنطق الرسوم الملونة وتبدو وكأنها شاشات تليفزيونية صغيرة تحكى قصصاً ومشاهد دينية.

وأصحاب الدكاكين الخشبية يعزفون الموسيقى ويعلنون عن بضاعتهم من الهدايا التذكارية. ومختلف أشكال وألوان الشموع. ومشغولات خشبية لتماثيل دقيقة الصنع.. وإكسسوارات نسائية من حلقان وغوايش.. ولعب أطفال لا تعد ولا تحصى.. وزحام لا يهدأ حتى بعد منتصف الليل.. وحتى بعد ظهور باعة الطبعات الأولى من الصحف الصباحية.. الذين يتمركزون على نواصى الطرقات وبجوارهم أكوام الصحف يضعونها تحت شمسية كبيرة إتقاء لأى مطر مفاجئ.. أو ثلوج متساقطة.

ونتذكر على الفور ليل القاهرة فى أمسيات رمضان الساحرة.

ولكنهم هنا يودعون عاماً ويستقبلون عاماً جديداً.. ومهرجان أعياد الميلاد،

ورأس السنة يبدأ من منتصف نوفمبر.. ويمتد حتى نهاية العام.. فهى فرصة للبيع والشراء.. وفرصة لاستعادة المرح والبهجة.. وفرصة لمن هم مثلى فى زيارة سريعة لأن يعيشوا فن الفرح بالحياة!!

فقد تعبوا وعملوا بصبر واجتهاد طوال العام.. وجاء وقت إجازة أعياد الميلاد ليلتقطوا أنفاسهم.. ويجددوا نشاطهم، ويدفعوا بمزيد من القوة للمارك الألمانى لكى يقف صلباً شامخاً فى سوق العملات الأجنبية، وشاهداً على قوة الاقتصاد الألمانى فى سباق النمور والأسود والأفيال.

• الورقة الثانية •

دقائق قليلة بالسيارة.. ونعبر بوابة «براندنبرج» الشهيرة.. لنكون فى قلب برلين الشرقية.. هكذا كانوا يسمونها.. ومازال البعض يرددها.

ولا تصدق أنك بهذه السهولة، وبهذه السرعة، تعبر حائط برلين، وأكثر من أربعين عاماً من التقسيم والحرب الباردة بكل أجهزة الأمن والمخابرات ومغامرات الجواسيس، والصواريخ المنصوبة فى الجانب الشرقى من المدينة تهدد الجانب الغربى.. وأحلام مستحيلة - وتعتبر ضرباً من الخيال - أن يلتقى طرفا الشعب الواحد.. ويلتقى أبناء العائلة الواحدة.

ولكن ها هو المستحيل يتحقق.. ويتحطم حائط برلين.. ولا يبقى له من أثر سوى بضعة أمتار تركوها أيضاً كشاهد على ما كان.. وكتبوا ورسموا عليها كل عبارات الحرية والاحتجاج على الديكتاتورية.. والفرحة بالتئام الشمل.

وأتوقف أمام ما تبقى من حائط برلين.. وتعود بى الذكريات إلى عام ٦٩.. عندما كنت فى منحة لمدة ستة أشهر فى معهد الصحافة ببرلين الشرقية باتفاق مع نقابة الصحفيين المصرية.. ذلك الاتفاق الذى ظل سارياً لعدة سنوات، واستفاد منه عدد من زملاء المهنة الذين أصبحوا فيما بعد من نجوم الصحافة المصرية.

أتذكر. كيف كانت الحراسة مشددة على بوابة «براندنبرج» بكل أجهزة الدولة البوليسية من أسلحة وأجهزة إنذار وكاميرات خفية.. ولا تستطيع الاقتراب إلا في حدود مرسومة أحاطوها بالمتاريس والأسلاك المكهربة.. وأتذكر ماكانوا يقولونه لنا عن شرور الجانب الغربى من برلين وإغراءاتهم لالتقاط الجواسيس.. ويقظة الجانب الشرقى فى تعقب هؤلاء الجواسيس والأحكام القاسية التى صدرت ضدهم.. إلى الدرجة التى أقاموا فيها متحفاً خاصاً بنماذج الأسلحة والمعدات التى استخدمها هؤلاء الجواسيس، وصور الأنفاق التى حفروها عبر الحائط للتسلل.. واللافتات الضخمة التى كان يكتبها بعض رجال الجانب الغربى من برلين ويقفون وراء الحائط فوق مكان مرتفع.. حتى يقرأ سكان الجانب الشرقى، ما يثير شهيتهم للحياة الغربية بكل إغراءاتها وحريتها.. لدرجة أنهم كانوا يستفزون جنود الحراسة على الجانب الشرقى من الحائط بصور عارية من مجلة «بلاى بوى»، وهم يشربون زجاجات الكوكاكولا!!

وكنا نرى.. ونسمع.. ونتفرج على التليفزيون الغربى الذى فشلوا فى الشوشرة على إرساله، ويزداد فضولنا لكى نعرف حقيقة ما يحدث على الجانب الغربى من برلين.. حتى سمحوا لنا فى الأسابيع الثلاثة الأخيرة من المنحة الدراسية بتصاريح العبور إلى الجانب الغربى.

وكانت هذه التصاريح تستلزم التفتيش الدقيق، والذى يصل إلى التفتيش الذاتى بأن تخلع كل ملابسك خوفاً من التهريب أو حمل أشياء ممنوعة.. وما أكثر قائمة الممنوعات عبر نقط التفتيش فى برلين الشرقية.. ولكن كل هذه الإجراءات القاسية كانت تهون فى مقابل المغامرة لإكتشاف الحياة على الجانب الغربى.. ولم يكن الأمر يتطلب سوى ركوب قطار مترو يقطع المسافة فى عشر دقائق.. لتجد عند محطة الوصول فى برلين الغربية زحام الباعة وسماسرة العملة والقوادين الذين يستقبلون القادمين من الشرقي بلهفة ليبيعوا لهم المارك الشرقى بملاليم.. ويدسون فى الأيدى صوراً عارية لبنات الملاهي الليلية

وإغراءات المتعة . . ويبيعون أيضاً الفاكهة والبارفانات والشرابات الحريمى، وكلها كانت أشياء نادرة فى الجانب الشرقى، وتخضع للمصادرة والعقاب عند بوابات التفتيش فى رحلة العودة.

وكانت برلين الغربية تستقبلنا فى تحد بالغ، وكأنها إعلان ضخم متحرك عن جاذبية الغربي، المحلات المكدسة بالبضائع المغرية رخيصة الثمن . . والمطاعم والملاهى والأضواء والحرية.

والخوف أيضاً . فنحن قادمون من برلين الشرقية وإليها نعود . . وعلينا ألا نتورط فى أية شبهة قد تؤدى بنا إلى سجون وتعذيب نسمع عنه كما نسمع عن الأساطير المرعبة!

هكذا كانت رحلتى الأولى إلى برلين عام ٦٩.

وهكذا أعود بعد ٢٥ عاماً . . بدعوة من دائرة الإعلام بالحكومة الألمانية الاتحادية لمدة عشرة أيام لزيارة عدد من الولايات والمدن الألمانية فى برنامج تحدد حسب اهتماماتى الصحفية.

وكان الموضوع الأول الذى طلبته هو معرفة ما الذى جرى على أرض الواقع فى برلين . بعد سقوط الحائط فى نوفمبر ٨٩ . . وبعد مرور خمسة أعوام على الوحدة بين شطرى ألمانيا.

وتحددت فى انضباط شديد مواعيد اللقاءات والزيارات . . والانضباط الألمانى سمة تميز العمل هنا . . فكل شىء محدد بالدقيقة والثانية . ولا مجال للفوضى أو الصدفة، وهى أحد أسرار قوة ألمانيا الاقتصادية.

• الورقة الثالثة •

المسافة بين برلين الغربية، والشرقية . . لا تتعدى بضع مئات من الأمتار، ولكن ما أن تدخل برلين الشرقية حتى تفاجأ باختفاء كل مظاهر الاحتفال . . والاستعداد لأعياد الميلاد، لا بابا نويل، ولا أشجار العيد، ولا زينات أو بهرجة . . وكأن برلين الشرقية، لم تتخل عن عاداتها القديمة بالصرامة والجهامة . . ولكنك

تفاجأ بأوناش ضخمة وبلدوزرات وحركة هدم وبناء تصل الليل بالنهار.. باطن الأرض مفتوح.. وأسوار خشبية تحيط بمعدات البناء.. في ورشة عمل لا تهدأ.. وقد ارتفعت بعض المباني الجديدة الشاهقة.. وارتفعت أيضاً إعلانات «ماكدونالدز» و«الكوكاكولا» و«مرسيدس».. وباقي أشهر الصناعات الغربية، وكأنه بصمة التغيير الذي لا تخطئه عين.

واختنقت إشارات المرور بزحام سيارات حديثة من كل الموديلات.. وضاقت الشوارع بفعل عمليات الحفر ومد شبكات جديدة للكهرباء والماء والتليفونات.. وتغيرت الملامح تماماً.. ولم يعد شارع «إنتر دنلندن» أو ميدان «إلكسندر بلاتس» كما كان.. أو كما بقي في الذاكرة منذ خمسة وعشرين عاماً.. عندما كانت مكان نزهتنا الوحيدة في أمسيات برلين الشرقية المتجهمة!

يد التغيير امتدت إلى كل شيء وبسرعة فائقة.. فهم يعدون مدينة برلين بشطريها الشرقي والغربي لتكون العاصمة الرسمية لألمانيا بدلاً من «بون».. وقد بدأت بالفعل عمليات انتقال العديد من الإدارات والمؤسسات الحكومية إلى برلين.

ولكن كل هذا التغيير الذي يحدث الآن.. هل امتد إلى البشر أيضاً.. وبالتحديد إلى سكان ألمانيا الشرقية الذين عاشوا ما يزيد على أربعين عاماً تحت ظل نظام حكم معين دخل في كل نسيج حياتهم وأفكارهم..

هل من السهل أن يتغير أسلوب الحياة بمثل بساطة هدم مبنى قديم وإنشاء مبنى جديد؟!

هذا هو السؤال الصعب الذي يشغل بال الجميع.. وكان محور لقاءاتي.

• الورقة الرابعة •

حكى لي أحد السياسيين الألمان أنه في يوم سقوط حائط برلين.. انتقل مع زملائه إلى برلين الشرقية لتولي مهام العمل الجديد.. وعندما حان موعد العشاء ذهبوا إلى أحد المطاعم.. وظلوا ينتظرون طويلاً أن يأتي أحد لتلبية طلباتهم في

الطعام.. ولكن لم يأت أحد.. وجاء إليهم صاحب المطعم ليخبرهم أن جميع الجرسونات والطهاة قد انتقلوا منذ الصباح إلى برلين الغربية ولم يعد هناك أحد ليعمل هنا!!

هذه الواقعة رغم بساطتها تعكس هذا الإحساس بالفرح الطاغى بعد سقوط حائط برلين.. وكأن أبواب سجن عتيق قد تزلزلت وانفتحت فجأة ليخرج الجميع من وراء القضبان، ليكتشفوا الحياة على الجانب الآخر.

كانت مفاجأة سقوط حائط برلين وتحقيق الوحدة بين شطرى ألمانيا.. فوق كل احتمال أو خيال.. وعلى حد تعبير المستشار الألمانى «هليموت كول» فى حوار جرى مؤخراً مع مجلة «دويتشلاند»: (لقد دارت فى الأعوام الماضية نقاشات حامية حول السرعة التى تحققت بها الوحدة.. إلا أنه أصبح واضحاً اليوم أكثر من أى وقت مضى أن التصرف السريع والحازم لم يكن له أى بديل.. فلم تتوافر لنا الفرصة لتحقيق الوحدة إلا فترة قصيرة من الزمن تراوحت ما بين أربعة وخمسة أشهر.. ولو لم نستغل هذه الفرصة فى الوقت المناسب لضاعت منا دون رجعة).

وهكذا وجد ستة عشر مليوناً ألمانياً شرقياً.. بين يوم وليلة.. أنهم فى أحضان نظام سياسى جديد.. يعتمد على الحرية والديمقراطية والاقتصاد الحر.. بعد أربعين عاماً من الحكم الشمولى.. ودولة الرقابة والاضطهاد السياسى وقيود السفر والتنقل وحرية الرأى.

انتقال حاد من البارد إلى الساخن.. فكيف جرت بهم الحياة؟!

هل مازال الإحساس الأول بالفرح والانعتاق والحرية.. هو الإحساس السائد.. أم أن مشاكل الحياة اليومية فجرت التناقضات ما بين أبناء الغرب وأبناء الشرق؟!

الإجابة التى اتفق عليها جميع من التقيت بهم من المسئولين أو الجمهور.. أن الإحساس بالحرية لا يمكن مقايضته بأى شىء آخر.. يكفى حرية الكلام والتنقل دون رقابة أو تجسس.. ولكن مع هذه الحرية يجب توافر مواصفات الحياة الكريمة فى عمل مناسب.. ودخل مناسب.. وسكن مناسب.. وطعام مناسب..

وهذه هى المشكلة القائمة حالياً.. هو إحساس أبناء ألمانيا الشرقية بأنهم الأقل مستوى من زملائهم فى ألمانيا الغربية.. فى العمل والدخل والمسكن والطعام.

وإحساس أخطر فى الجانب الغربى.. هو الإحساس بالتفوق، وإنهم القوى المنقذة.. الأكثر علماً وحضارة وقوة.. والذين ذهبوا إلى أبناء ألمانيا الشرقية ليعلموهم أساليب وفنون الحياة العصرية.

وتجلى هذا الإحساس فى إغلاق ثمانين فى المائة من مصانع ألمانيا الشرقية.. وهو رقم مذهل يعنى الاستغناء عن عمل وإنتاج أغلب مصانع ألمانيا الشرقية.. وبطالة ما يقرب من مليون ونصف المليون شخص!! وقد كانت خطة خبراء الاقتصاد فى ألمانيا الغربية هو تحديث كل هذه المصانع وبناؤها من جديد على أسس تكنولوجية لمواجهة تطورات المستقبل، مع إعادة تعمير البنية الأساسية من طرق وخدمات.

وقد دفعت ألمانيا الغربية ما يزيد على ستمائة مليار مارك خلال السنوات الخمس الماضية لإعادة تعمير ألمانيا الشرقية.. وهو رقم ضخم تحمل جزءاً كبيراً منه المواطن الألمانى الغربى فى شكل ضرائب على الدخل.. مما يزيد الإحساس بأن أبناء الغرب يدفعون جزءاً من رواتبهم لصالح أبناء الشرق.

وعندما ذهب أبناء الإدارة الغربية إلى ولايات ألمانيا الشرقية.. بدأوا يحاسبون على كفاءة وانضباط العمل.. وكان من نتيجة ذلك أن خرج مائة ألف موظف حكومى شرقى من العمل.. وأصبحوا الآن عاطلين ينتظرون الإعانة.

وفى المقابل انتقل مائة وثمانون ألف ألمانى شرقى للعمل فى الجزء الغربى من برلين.. انتقلوا لتحسين مستواهم المادى.

وأدى كل هذا إلى اضطراب وقلق فى المجتمع الألمانى.

وعلى حد تعبير «ديتر شولتة» رئيس الاتحاد العام للنقابات الألمانية: (أن الدراسات الخاصة بالتشغيل تشير إلى أن الاستعداد الكبير لدى الألمان الشرقيين للعمل لن يقابله فى المدى القريب عروض كافية لامتصاص البطالة.. وتعانى

فى نفس الوقت الذى يحرثون فيه أراضى ألمانيا الشرقية.. ليبنوا فيها المصانع والمعامل الحديثة المتطورة.

ولكن يبقى تعبير «الحائط مازال فى الرءوس».. هو التعبير الأكثر تداولاً بين المثقفين وخبراء الاجتماع. فقد سقط حائط برلين.. ولكن مازالت المفاهيم القديمة والمقارنات تشغل الرءوس.

وتغيير الشخصية يحتاج إلى وقت وجهد أكبر.. ليس فقط من جانب الألمان الشرقيين.. ولكن أيضاً من جانب الألمان الغربيين!

وهنا يصدق تحليل رئيس تحرير صحيفة «لوموند» الفرنسية عندما كتب «دانييل فرنيه» يقول: (إن التصور بأن ألمانيا الغربية قد ابتلعت ألمانيا الشرقية.. لم يختف من أذهان الناس.. على الرغم مما تحقق من إنجازات اقتصادية، وكلما تحسنت الحالة الاقتصادية، خفت حدة «الصدمة»، التى نجمت عن انهيار نظام الحكم الشيوعى، وتوحيد ألمانيا، وحل محلها وعى مشتت بين أصحاب امتيازات الماضى. والذين يشعرون بالإهمال حاليا.. وأيضاً بين الذين عاشوا على مدى أربعين عاماً من العمل والشقاء والتضحية.. ويعتبرون هذا العمر لم يكن كله عبثا لا نفع فيه.. وأن هذه الأربعين عاماً هى جزء من تاريخ جميع الألمان.. وعندما يطبق الألمان الغربيون على الولايات الجديدة نظامهم السياسى والاجتماعى الذى أثبت جدارته.. عليهم أن يقبلوا أيضاً بأنهم قد تغيروا بسبب الوحدة.. حينئذ فقط يمكن القول بأن الوحدة قد اكتملت».

ومازالت الآراء تتبارى فى وصف وتحليل ما حدث.. بكل صراحة ووضوح وعلانية.. وهذا أجمل ما فى الديمقراطية.

وداعاً للغرباء !!

فى قلب برلين. وداخل مكتبة ضخمة لبيع أحدث الكتب وجرائد ومجلات العالم.. لم أتوقع أن أجد وسط الكروت السياحية الملونة واللامعة.. كارتاً سياحياً عن حى الاتراك فى برلين!!

لم يكن فى الكارت طبيعة ساحرة أو متاحف وقصور المانية قديمة ممتلئة بالتماثيل الرائعة أو كنوز المقتنيات- كما هى العادة فى تلك الكروت السياحية-.. وإنما كان الكارت ببساطة شديدة يصور عربة قطار أو ترام قديم، وقد تحول إلى مسكن لعائلة تركية مهاجرة!

العربة من الصفيح والخشب المتهالك.. ولأن الحاجة أم الاختراع، فقد اخترع سكان العربة أن يرفعوها على قوائم من الحديد والأحجار...وصمموا سلماً خشبياً مرتفعاً يحميهم من المياه فى أيام المطر... واخترعوا أيضاً مكاناً لمدفأة، وأوصلوا خرطوماً بلاستيكيا لجركن من الماء، ليشربوا منه، ووضعوا الأكواب خارج العربة.. فالمساحة فى الداخل يبدو لا تكفى إلا لأجسادهم.. وركنوا الدراجة بجوار جدار العربة ليستعملوها فى انتقالاتهم بالمدينة!!

هذا هو المسكن.. وهذه هى الحياة.. ولا خجل من أن يصوروا هذا المشهد ويطبعوه على كروت البوستال.. ويوزعوه على المكاتب ليشتريه أي سائح أو زائر للمدينة.

فليس هناك عورات يجب إخفاؤها أو التكتم عليها.. فمادام هذا يحدث فى الواقع.. فلا خوف من الاعتراف به.

ولا انكر اننى احسست بالدهشة، وأنا أتأمل هذا الكارت، واشتريه بسهولة، وانشره هنا ببساطة.. وسبب دهشتى اننا فى عرف بلادنا نجد دائماً الاصوات تتشنج وتعلو وتصرخ إذا اقتربت كاميرا من الحوارى والأزقة الشعبية المكدسة بالبشر والعجائب..ويا ويل صناع فيلم سينمائى إذا حاولوا أن يصوروا واقعاً تعساً، أو نماذج بشرية فقيرة ومتهالكة تعيش على هامش المجتمع.. سيظهر الف

واحد وواحد يكتب فى الجرائد، ويتكلم فى الإذاعة والتيفزيون.. عن هؤلاء «الخونة» الذين لايرون إلا القبح فى مجتمعنا، والذين لابد أنهم عملاء لجهات أجنبية تريد الإساءة لبلادنا.. ولابد من عقابهم وسحب الجنسية منهم، ومطاردتهم فى كل مكان..!!

هذه الصرخات، من المؤكد أننا سمعناها وقرأناها كثيراً.. بل أصبحت مادة الاسئلة فى الندوات والمؤتمرات.. وعلى المتهمين أن يدافعون عن أنفسهم.. ولكن غالباً بدون اقتناع منا.. لأننا مصممون على اعتبار هذا الواقع، وكأنه فضيحة يجب التستر عليها.

ولكن فى المجتمعات التى سارت شوطاً فى الديمقراطية، واحترام حرية الرأى والتعبير، يعتبرون هذه الفضائح أو العورات، واقعاً يستحق الرصد والتحليل والمناقشة الحرة.. أما مسألة التكتم والإخفاء، فهى نكتة قديمة لم تعد متداولة فى عصر المعلومات والأقمار الصناعية، وحيث أصبح العالم وكأنه قرية صغيرة يعرف أى فرد فيه ما يدور خلف جدران جاره.

• الورقة الثانية •

عندما جاءتنى دعوة الحكومة الألمانية لزيارة المانيا.. سألنى الدكتور «أرمين كرسلر» المستشار الصحفى والإعلامى لسفارة المانيا بالقاهرة، عن الموضوعات التى أود مناقشتها هناك وطافت بذهنى صور مظاهرات بعض الشباب الالمانى من اليمين المتطرف الذين يطلقون على أنفسهم «النازيون الجدد» وهم يتحرشون بالأجانب، ويحرقون منازل بعض الاتراك المهاجرين فى ألمانيا.. ويقتلون منهم بعض الضحايا، ويدخلون في صدامات عنيفة مع الشرطة.. تلك الأحداث التى تناقلتها وكالات الأنباء واذاعتها نشرت الاخبار فى تليفزيونات العالم. قلت للدكتور «كوسلر» أريد أن أرى كيف يعيش الأجانب الآن فى المانيا.

وفي اليوم التالى مباشرة وصلتنى مجموعة من الكتب والمجلات التى تتحدث عن هذا الموضوع.. وتحددت لى مواعيد اللقاءات والزيارات على الطبيعة فى ألمانيا.

وعندما وصلت إلى هناك . . اكتشفت أن الموضوع مازال ساخناً ومثاراً على صفحات الجرائد ، وفى أحاديث رجال السياسة والاقتصاد لم يكن الاتراك المهاجرون هم أبطال الموضوع هذه المرة - ولكن كان الموضوع الخاص بابناء يوغسلافيا التى تفككت ودخلت فى حرب عرقية طويلة ودامية . . وهاجر عدد ضخم من اليوغسلاف إلى ألمانيا . . ولكن الآن وبعد اتفاق السلام فى البوسنة ، والذى تم التوقيع عليه منذ أيام . . أصبح السؤال المطروح بإلحاح فى الأوساط الألمانية . . لماذا لايعود هؤلاء المهاجرون اليوغسلاف إلى بلادهم الآن . وقد أصبحت فى حالة سلام ؟!

• الورقة الثالثة •

فى العاشرة صباحا . . تحدد لى موعد اللقاء مع السيدة «إليك فوهيل» المسئولية عن مكتب المهاجرين فى برلين . . المبنى من طابقين ، يزين مدخله بوسترات الوحدة والإخاء بين البشر . . فى الطابق الثانى يجلس بعض المهاجرين ينتظرون دورهم مع إخصائى المكتب للاستماع إلى مطالبهم وشكاويهم . . الهدوء يسود المكان . . وحالة من الطمأنينة على الوجوه . . وجاءتنى السيدة «إليك» تسبقها ابتسامتها الرقيقة تقودنى إلى مكتبها . . وفى الطريق إليه لمحت عدداً من الهاجرين موزعين على مكاتب الإخصائيين والاستشاريين يتحدثون فى صوت خفيض ، وكأنهم أمام رجال دين يعترفون بهمومهم !!

وعرفت ان هذا المكتب يهتم بحقوق الأجانب ، وبالتحديد فى القضايا الخاصة بالقانون الألمانى . . والمكتب يوفر عدداً من المحامين يقدمون مجاناً الاستشارات القانونية . . وهذه الاستشارات تتم فى جو من السرية التامة ، وهناك مجموعة عمل أخرى فى المكتب تقوم بتقديم المساعدات المالية للمهاجرين الأجانب إذا رغبوا فى إقامة نشاط ثقافى أو فنى أو دينى (فى حدود القانون)

قالت لى السيدة «إليك» (نحن هنا نحاول إيجاد حلول للمشاكل

الاجتماعية بالنسبة للأجانب.. أما إيجاد فرص عمل فهى مهمة رجال الاقتصاد.. ولأن عدد الأجانب هنا زاد على ٤٠٠ ألف شخص.. فهناك ممثلون لهم فى البرلمان.. وأى قرار يتعرض للأجانب لا بد أن يكون لنا رأى فيه قبل إقراره، وفى هذا المكتب يعمل ثلاثون شخصاً لخدمة الأجانب، والميزانية المرصودة لنا ١٤ مليون مارك سنوياً..)

ومكتب برلين.. يعتبر أكبر وأقدم مكتب تأسس عام ٨١ لخدمة الأجانب، وهناك مكاتب أخرى فى مختلف الولايات الألمانية تقوم بنفس الخدمة.

وفى برلين وحدها.. ما يزيد على ١٥٠ الف تركى مهاجر.. وحوالى ٧٠ الف مهاجر من يوغسلافيا جاء أغلبهم بعد حرب البوسنة.

وهؤلاء المهاجرون اليوغسلاف- كما يقول- هو موضوع الساعة بالنسبة لنا: (ففى كل يوم تدق تليفونات عشرات الصحفيين الألمان يسألوننا: متى يعود هؤلاء اليوغسلاف إلى بلادهم)!!

وتضحك السيدة «إليك» وهى تعلق «الصحافة أحياناً تلعب دوراً ضد الأجانب، فهو موضوع مثير يزيد من توزيع الصحف والمجلات.. لأنهم يركزون على وتر المبالغ التى تدفعها الحكومة الألمانية، والتى تصل إلى نصف مليار مارك سنويا لتوفير السكن والتأمين الصحى والاجتماعى للمهاجرين.. وتندد بعض الصحف الألمانية بحجم هذا المبلغ الذى يتحمله المواطن الألمانى.. ويطالبون بإنفاقه على إنشاء دور حضانة للنساء الألمانيات وهكذا تساهم الصحافة فى إثارة الرأى العام ضد الأجانب)!!

• الورقة الرابعة •

ميونيخ مدينة رائعة تقع فى غرامها منذ النظرة الأولى.. تحفة فى التخطيط، وفن المعمار.. حدائق وبحيرات وقصور وكنائس قديمة ترجع إلى العصور الوسطى، وتمتد إلى عصر النهضة.. وأمام كل جدار من هذه الكنوز الفنية

تتسمر قدماك رغماً عنك لتتأمل هذه الدقة المتناهية فى النقوش والتماثيل.. متحف مفتوح فى الهواء الطلق، وتتناغم معه فى تناسق مسحوب كل المبانى والأسواق العصرية.. بدون نشاز أو فوضى معمارية.. وقد أغلقت بعض الشوارع فى وجه مرور السيارات، لإتاحة الفرصة دون إزعاج للمشاة، لكى يتأملوا ويستمتعوا بكل هذا الجمال وميونيخ هى عاصمة ولاية «بافاريا» أكبر ولاية المانية من ناحية المساحة، وأقدمها من ناحية عراقتها التاريخية.. وقد صارت تسمى بعد الحرب العالمية الثانية باسم العاصمة الخفية لألمانيا، واشتهرت كمركز لمنطقة اقتصادية، استقطبت عدداً من الصناعات الحديثة، كصناعة السيارات والطائرات والصناعات الكهربائية والإلكترونية ودور الطباعة والنشر.

ومن هنا.. كانت منطقة جذب للمهاجرين من الكتلة الشرقية (بولندا، بلغاريا، المجر.. ثم الاتحاد السوفيتى وبوغسلافيا بعد تفككهما).

وكان لا بد من لقاء أحد رجال الصحافة.. لنفهم حقيقة الاتهام الموجه للصحافة بأنها تثير الرأى العام الألمانى ضد الأجانب.

وهكذا التقيت مع «فرنير مينر» رئيس المحررين السياسيين بجريدة «ميونيخ ميركور» وهى من أقدم وأشهر الجرائد الالمانية، ويتجاوز عمرها المائة عام..

وبدأنا الحوار من نقطة اللجوء السياسى لألمانيا.. حيث قال محدثى إنه من هذه النقطة بدأت مشكلة تزايد الأجانب فى ألمانيا فقد كان أى شخص يصل للحدود الألمانية، ويقول إنه يطلب اللجوء السياسى، كان يسمح له بالدخول.. وادى هذا إلى ازدياد اللاجئين السياسيين، مما أحدث بلبلة بين المواطنين الألمان.. وأيضاً بين الأجانب الذين يعيشون منذ فترات طويلة فى ألمانيا.. مما اضطر الحكومة الألمانية لتشديد القوانين الخاصة باللجوء السياسى.. وإن كنا مازلنا نحترم ونقبل أى لاجئ سياسى يجد نفسه مهدداً فى بلاده.. إلا اننا لا نستطيع ان نقبل اللاجئين الاقتصاديين الذين يأتون فقط لتحسين أوضاعهم الاقتصادية. ذلك لأن عندنا مشكلة ثلاثة ملايين ونصف مليون المانى عاطل عن العمل:

قلت له : عما سمعته مؤخراً من المطالبة بعودة اللاجئين اليوغسلاف بعد توقيع اتفاقية السلام فى البوسنة ؟!

قال لى : إن هناك مشروع قرار مقدماً من وزير داخلية ولاية «بافاريا» ويسعى لإقناع زملائه فى الولايات الألمانية الأخرى . .يوضع برنامج زمنى لإعادة اللاجئين اليوغسلاف إلى بلادهم . . يبدأ أولاً من الأشخاص الذين جاءوا بمفردهم وبدون عائلاتهم ، ولديهم القدرة على العمل . . هؤلاء يجب أن يعودوا إلى بلادهم ليعيدوا بناءها وتعميرها . . ويتدرج البرنامج الزمنى بعد ذلك بإعادة العائلات اليوغسلافية .

سألته عن النازحين من روسيا . .

قال : كنا نتوقع أن يصل عددهم إلى خمسة ملايين شخص بعد تفكك الاتحاد السوفيتى . . ولكن الذين وصلوا إلينا لم يتجاوز عددهم المائة الف فقط . . وكان هذا بسبب إسراع الحكومة الالمانية لتدارك النزوح الرهيب المتوقع . . بأن دفعت للروس من أصل المانى دعماً مالياً لكى يظلوا فى بلادهم ويعملوا هناك

قلت له : نصل الآن إلى المهاجرين الأتراك .

قال : المشكلة ليست فى المهاجرين الاتراك . . ولكن فى الأكراد الذين يريدون إشعال حروب وصدامات مع الاتراك فى بلادنا . . وهذا مرفوض بكل المقاييس .

• الورقة الخامسة •

حى الأتراك فى مدينة برلين . . اسمه «كريزبرجر» . . وما أن تتجول فيه حتى تشعر انك خارج المانيا . . صحيح أن الأرض المانية ، والمسافة بين هذا الحى والأحياء الأخرى لا تتعدى بضع دقائق بالسيارة . . ولكن هنا الروح والتقاليد والحياة مختلفة . . المحلات كلها تركية واللافتات باللغة التركية . . المطاعم تركية . . والنساء والفتيات الصغيرات بغطاء الرأس . . ويسترعى انتباهك أكثر النساء العجائز الاتراك اللاتى جئن مع ابنائهن وازواجهن . . ملامح الغربة تطل من العيون . . واللسان لم يتعود اللغة الألمانية رغم طول الزمن . . ولهذا يتكتلون

مع بعضهم فى صمت مشحون بالحنين.. ربما الشباب والأطفال أكثر انطلاقاً فى محاولة الانسجام مع المجتمع الألمانى.. إلا أن هناك إحساساً دائماً بالحذر من الوقوع فى أية مشكلة يعاقب عليها القانون الألمانى.. ورغم هذا تجد بعض الألمان يعلقون على جرائم انتشار المخدرات بان سببها يعود إلى عصابات من الشباب التركى والإيرانى.

والإحصائيات الألمانية الرسمية.. تشير إلى أن عدد العاملين الأجانب الذين يعملون بشكل رسمى فى ألمانيا.. وصل إلى ٢,١ مليون شخص.. أغلبهم من الأتراك.

ومن هنا.. يثور النقاش الحاد بين حق هؤلاء المهاجرين فى العمل وحق أبناء المانيا فى إيجاد فرصة عمل.. خصوصاً بعد الوحدة بين شطرى المانيا وارتفاع نسبة البطالة في الجانب الشرقي من ألمانيا.

وقد استغلت أحزاب اليمين المتطرف هذه الحالة لإثارة مظاهرات وحملات الكراهية ضد الأجانب.. وقد فسر أحد خبراء علم النفس فى ألمانيا، وهو الخبير «ماريو أردهايم» هذه الحالة بقوله: (عندما يؤدى التحول الحضارى إلى إعادة توزيع الامتيازات، وإلى نشوء فئات جديدة من الفقراء، يبدأ الناس يفكرون أن الأجانب والنازحين وطلاب اللجوء يشكلون خطراً عليهم، فتظهر العنصرية على الساحة الاجتماعية.. فالعنصرية عقيدة توهم الفقراء من أبناء البلد بأنهم يستحقون حياة افضل لأنهم ينتمون إلى الجنس المسيطر.. وينسى هؤلاء المتعصبون أن يفسروا سوء الأحوال بعجز المجتمع عن معالجة مشاكله، أو بأن المجتمع دخل فى طور جديد من إعادة تشكيل البنية الاقتصادية، وهو هنا يحتاج إلى وقت.. وجهد الجميع).

ويصل الخبير النفسى الألمانى إلى تصور الحلول من خلال التعليم فى المدارس وضرورة تفهم وجود الأجنبى بعاداته وتقاليده وديانته.. وأيضاً ضرورة وضع مفهوم جديد للعمل، ولشغل أوقات الفراغ.. وحتى لا يتحول وقت الفراغ إلى وسيلة لإشباع الغرائز العدوانية سواء فى الشارع.. أو أمام أجهزة الألعاب

الإلكترونية يبثها كل العنف الذى بداخله، وأيضاً كل الرغبة فى التفوق وإثبات الوجود.

• الورقة السادسة •

والمثير.. أن مشكلة المهاجرين الاتراك فى ألمانيا.. قدمتها السينما الألمانية فى ثقة ودعم مالي واضح من خلال افلام المخرج الألمانى «توفيق باسر» والذى يدل اسمه على أصله التركى.. فهو أيضاً أحد المهاجرين إلى المانيا، والذى اكتسب شهرة عالمية من خلال عرض قضية المهاجرين الأتراك فى ثلاثة أفلام متتالية عرضت كلها فى مهرجانات دولية تحت اسم المانيا.

كان فيلمه الأول بعنوان: «٤٠ متراً مربعاً فى ألمانيا» والمقصود بالعنوان هو مساحة ذلك المنزل الضيق الذى حبس فيه أحد المهاجرين الاتراك، زوجته.. حتى لا تحتك بالمجتمع الألمانى!!.. وجاء فيلمه الثانى بعنوان: وداعاً.. للحديقة الكاذبة»، الذى يحكى من خلاله عن إمرأة تركية تعتقل بسبب جريمة قتل زوجها، ومعاناتها المريرة داخل السجن الألمانى.

أما فيلمه الثالث فكان عنوانه (وداعاً.. أيها الغرباء) يتناول حالة أحد الاتراك الذين لا يحملون تصريح إقامة فى ألمانيا. فيضطر للهروب إلى جزيرة نائية فى بحر الجنوب، سكانها يفرون من عواصف الشتاء، ولايبقى بها سوى صاحب مقهى وعدد من المهاجرين الهاربين من مطاردة الشرطة (من جنسيات آسيوية وأفريقية). يقيمون بين حطام حافلة قديمة فى العراء.. ويتصادف فى ذلك الوقت، وصول تلك المرأة الألمانية التى تعدت الأربعين من عمرها، والتى جاءت لتقيم فى منزلها الصيفى بالجزيرة هرباً من مشاكلها العائلية.. وهكذا تلتقى هذه المرأة بذلك المهاجر.. وتنشأ بينهما صداقة من نوع نادر.. فكلاهما يتكلم بلغة مختلفة لا يفهمها الآخر.. ولا اتصال سوى المشاعر الإنسانية.. حتى تهب عاصفة قاسية تكتسح أرض الجزيرة.. وتسرع فرق الإنقاذ.. لانتشال

الأحياء على هذه الأرض المغمورة بالمياه . . وهكذا تكتشف الشرطة حقيقة هذا المهاجر الذى لا يحمل تصريح إقامة، ويقومون بترحيله إلى بلاده . . وبعد انقضاء عدة شهور تكتشف تلك المرأة الألمانية رسالة تصلها بالبريد داخلها كتاب عليه صورة ذلك المهاجر . . وتقرأ . . انه أحد المعارضين السياسيين ، وإنه مات أثناء إضرابه عن الطعام فى أحد السجون التركية . . ولم يكتب الكاتب سوى مذكراته الشخصية . . ورحلة هروبه إلى المانيا، ولقائه مع هذه المرأة التى لم يفهم لغتها . .ولكن أحاطته بالحب والحنان.

وهكذا سقطت فروق اللغة والجنسية أمام هذا الدفء الإنسانى والإحساس بالأمان.

وهو ما يبحث عنه كل المهاجرين فى أى مكان .

حلم المرسيدس !!

لم يتوقف الشارع المصرى أمام سيارة ، مثلما فعل مع «المرسيدس»

فقد تفنن القاموس الشعبى فى أن يطلق على هذه السيارة عدة أوصاف وأسماء تتجدد كل عام مع كل موديل يغزو شوارعنا . . من «الخنزيرة» إلى الشبح و« البودرة» . . ومن «هيام» إلى «عيون صفية» ! !

والنكتة المصرية لا ترحم ، ذكية ولاذعة ، وتضرب فى الصميم . . كنوع من التنفيس عما يدور فى الأذهان من تساؤلات بلا إجابة .

وعندما ارتبطت ظاهرة «المرسيدس» بالطبقة الجديدة فى مجتمعنا ، وأصبحت عنواناً لها . . قال الشارع المصرى رأيه بسرعة ، وبسخرية ساخنة ، وباختصار فى كلمة واحدة ، لتصبح على كل إنسان هى كلمة السر الشعبية ، التى ما تعنى من مشاعر واحاسيس وتساؤلات ! !

ورغم أن الشارع المصرى يشهد كرنفالاً عجيباً من مختلف انواع وماركات السيارات لم أر له مثيلاً فى أى بلد فى العالم - إلا أن «المرسيدس» حكايتها حكاية .

ولهذا طلبت اثناء زيارتي لألمانيا ، أن أدخل واتجول فى مصنع «المرسيدس» . . وقد اعتبر الأصدقاء الألمان هذا الطلب ، نوعاً من التقدير والإعجاب بالصناعة الألمانية . . ولكن فى الحقيقة - ومع هذا التقدير - كنت أريد أن أرى بعينى «مصنع الاحلام» الذى يدير رؤوس أصحاب الملايين فى مصر وفى البلاد العربية .

لست مشترياً . . ولا من الذين يحلمون «بالمرسيدس» . .ربما لأننى من نوعية البشر الذين يؤمنون بأن «حمارتك العرجاء احسن من سؤال اللئيم» . .ولكنى أحمل فضول الصحفى الذي يريد أن يعرف كم سيارة تخرج من هنا سنوياً لتلبى «الأحلام» فى منطقتنا العربية حماها الله !

من شتوتجارت تنطلق بى السيارة ساعة تقريباً.. حتى نصل إلى «سيندلفنجن» وهو اسم المنطقة التى يقام عليها هذا المصنع الضخم لسيارات المرسيدس.. والمخصص فقط لسيارات الركوب.. أما سيارات النقل ومحركات الطائرات فلها مصانع اخرى متفرقة فى ألمانيا.

الساحة الخارجية للمصنع.. اصطفت فيها عشرات الصفوف من السيارات الجديدة الجاهزة للبيع والتسليم الفورى.. فعدد كبير من المشترين من داخل المانيا وأوروبا عموماً.. يفضلون استلام سياراتهم من المنبع، وكأنهم يتسلمون مواليدهم من على أبواب غرف الولادة.. وبضمانات ونصائح الاطباء وابتسامات الممرضات!!

حاولت أن أحصى عدد صفوف السيارات الجديدة.. فلم استطع ودخلت إلى بهو الاستقبال فى المصنع.. وتشككت لحظة اننى دخلت المكان الخطأ.

ولكن مرافقى أكد لى اننا فى المكان الصحيح.. فالمكان أشبه ببهو فندق فاخر يتعدى الخمس نجوم.. على المدخل دائرة متسعة من الكونترات وشاشات الكومبيوتر.. تقف خلفها مجموعة من فتيات الاستقبال للرد على تساؤلات الزوار الذين جاءوا لاستلام سياراتهم الجديدة.

وفى عمق البهو وعلى الجانبين.. تجاورت مكاتب خدمة الزبائن مع محلات بيع الهدايا ومطاعم وكافيتريات.. والحركة لا تهدأ، ولكن بلا أى ضجيج.. فزبائن المرسيدس هنا يفضلون الهمس، على غير عاداتهم عندنا!!

اصطحبتنى مسئولة العلاقات العامة بالمصنع.. إلى غرفة جانبية، ومع فنجان من القهوة شرحت لى طبيعة هذا المكان.. الذى إنشئ منذ خمسة عشر عاماً فقط لتقديم خدمة تسليم السيارات.. اما المصنع فى هذه المنطقة فعمره يتجاوز ٧٥ عاماً.

انتهت القهوة وحان الموعد لمشاهدة فيلم تسجيلى.. وندخل إلى قاعة مجاورة أعدت خصيصا لاستقبال كبار الضيوف.. وبدأ عرض فيلم الذى يحكى تطور صناعة سيارات المرسيدس من بدايته وحتى أحدث موديل.

قالت لى مرافقتى : إنه منذ أيام جاء إلى هنا رئيس وزراء الصين شاهد الفيلم .. ثم زار المصنع !!

قلت لها : ومتى سأزور أنا المصنع ؟! أومأت برأسها .. وقالت الآن .. وخرجنا من قاعة العرض السينمائى إلى بهو طويل إلى بوابة تفتح على الخارج لأجد ثلاث عربات مفتوحة اشبه بالترام الصغير . تحمل مجموعة من الزوار والسائحين الذين يرغبون مثلى فى مشاهدة خطوات العمل فى المصنع .

تتحرك عربات الترام الصغير ، وصوت المرشدة ينتقل إلينا عبر سماعات مثبتة داخل العربات تشرح لنا خطوة خطوة باللغتين الألمانية والإنجليزية .. ما يدور حولنا .

من هذا المصنع تخرج يومياً خمسمائة سيارة جديدة جاهزة للاستخدام

خمسمائة سيارة يومياً ؟! .. نعم .. لكن إنتاج «مرسيدس» عبر مصانع أخرى فى أوروبا وأمريكا .. يزيد على ستمائة ألف سيارة سنوياً !!

الرقم ضخم .. ولا مجال للدهشة .. ابواب المصنع تفتح أتوماتيكياً لتدلف عربات الترام الصغير تنتقل من وحدة تصنيع إلى أخرى فى نظام دقيق وتسلسل يوضح خط سير العمل .. بدءا من تشكيل ألواح الصاج الى جسم السيارة حتى مرحلة الدهان وتثبيت الزجاج الأمامى والخلفى .

فى كل هذه المراحل .. لا نرى إلا عدداً قليلاً من العمال .. اما العصب الحقيقى للعمل ، فهو «الروبوت» أو الإنسان الآلى .. وأعترف اننى توقفت طويلاً تغمرنى الدهشة ، لما وصلت إليه علوم التكنولوجيا ، فى دقة وانضباط هذا الإنسان الآلى ، وهو يقوم مثلاً بتثبيت تابلوه السيارة فى مكانه ، وفى وقت لا يتجاوز نصف دقيقة مع كل سيارة نصف دقيقة حسبتها بنفسى من لحظة أن يحمل التابلوه ثم يدخل به إلى جسم السيارة ، ثم يقوم بتربيط الصواميل الدقيقة على كل جوانبه !! وكأنك أمام فيلم من الرسوم المتحركة يخضع للخيال أكثر مما يخضع للمنطق . ولكنك أمام واقع ترى تفاصيله بعينيك .

نفس الشيء يحدث فى تثبيت الزجاج وباقى إكسسوارات السيارة .. ولا تمتد ايدى العمال إلا فى مرحلة الوصلات والأسلاك الكهربائية .. وحركة الأيدى هنا تماثل حركة الإنسان الآلى .. فى السرعة والدقةوالانضباط .

وعنابر المصنع كلها متصلة ببعضها .. كل عنبر مخصص لجزء معين من السيارة .. وجسم السيارة يتحرك أتوماتيكيا من عنبر إلى عنبر فى سهولة وتدفق محكوم بالدقيقة والثانية .

وعلى جوانب أى عنبر توجد غرف التحكم بالكومبيوتر ، لتراقب تدفق سير العمل .. ورغم ضخامة العمل إلا أنك لا تسمع صوتا مزعجاً وكأنك أمام تروس ساعة دقيقة تعمل فى صمت .

والمصنع هنا تغذيه عدة مصانع أخرى موزعة على مدن المانية .. فهناك مصنع فى «مانهايم» لفرش السيارة ، ومصنع فى «دوسلدورف» لآلات الستيرينج .. ومصنع فى «بريمن» لأجزاء من جسم السيارة ، ومصنع فى «فورث» للأجزاء البلاستيك .. وهكذا تتعدد المصانع المغذية للمصنع الرئيسى هنا ، والمقام على مليونى متر مربع !!

وهى «فرجة» للذين مثلى ، قد تغنى عن شراء سيارة ، ولكنها لا تغنى عن التعرف على حقيقة ما وصل إليه العلم ، وما يمكن أن يصل إليه فى المستقبل .

فهنا يعمل ٤٥ ألف عامل ومهندس- ودون أن تشعر بوجود هذا العدد الضخم- وعلاوة على ذلك ، يتم سنوياً تدريب ما لايقل عن ١٣٠٠ شاب على ألف عملية تخصصية داخل المصنع تمهيداً لتطور الصناعة .. فهم يفكرون دائماً للغد .

• الورقة الثالثة •

بعد هذه الزيارة .. كان لابد من لقاء من يملك الإجابة عن زبائن المرسيدس فى المنطقة العربية .. وهكذا التقيت مع «ستيفان فيشر» مسئول البيع والتسويق فى منطقة الشرق الأوسط .. ولدهشتى وجدته شاباً فى الثلاثينيات ، ولا يملك سيارة مرسيدس !! وضحكنا لهذه المفارقة ، وببساطة شديدة قال لى إنه لا يستطيع شراء المرسيدس .. لأن ثمنها فوق طاقته (ثمن السيارة فى ألمانيا ٥٥ ألف مارك) .. !! ومن هنا سألته عن الذين يملكون ثمن المرسيدس فى بلادنا العربية ..

وبمعنى ادق كم سيارة تخرج من هنا كل عام، مع كل موديل جديد إلى البلاد العربية؟!

أجاب: ما يقرب من عشرة آلاف سيارة سنوياً.

سألته عن نصيب مصر من هذا العدد؟!.. فأجاب إنه فى حدود الف سيارة سنوياً.. بالإضافة إلى مائتى سيارة بمواصفات خاصة.

سألته عن عدد السيارات المرسيدس المصفحة التى تدخل مصر؟! فأجاب إن الرقم يتراوح ما بين عشرين إلى خمسين سيارة!

أردت أن أخفف من وقع هذه الأرقام.. فسألته هل يعلم ما يقال عن «المرسيدس» فى مصر، من أسماء وأوصاف شعبية؟! ضحك وهو يقول إنه أثناء زياراته لمصر عرف هذه الأسماء والأوصاف.

وقد قام بتحليلها على أساس أن ثمن السيارة فى مصر، يفوق قدرة الغالبية من الشعب.. وهذه الأوصاف - رغم كل شيء - تميز المرسيدس عن أية سيارة أخرى!!

قلت له: إن أغلب مصانع السيارات في العالم.. تتجه إلى إنتاج سيارة صغيرة ثمنها معتدل تناسب الشباب.. فلماذا لا تدخل «المرسيدس» في هذا الاتجاه»!!

قال: إن هذا وارد بالفعل.. وقد اقيمت مصانع للمرسيدس فى اسبانيا.. ثم فى فرنسا.. لإنتاج موديلات أكثر شعبية.. وأقل ثمناً.

ثم قال: إن هناك اتفاقاً تم مع مصر، لإنشاء مصنع ضخم لتجميع سيارات المرسيدس.. وهذا الاتفاق يدل على ثقة المستثمر الألمانى فى الاقتصاد المصرى. بالإضافة إلى اهمية مركز مصر فى المنطقة العربية والشرق الأوسط.

• الورقة الرابعة •

ما سمعته هنا فى ألمانيا.. بين رجال السياسة والاقتصاد.. يؤكد على اهتمامهم بما يحدث فى مصر، من خطوات الإصلاح الاقتصادى، وخلق مناخ جاذب للاستثمار. إنهم لا يراهنون على الفشل.. ولا يدفعون ثمن مجاملة لا

تستحق. ولكنهم يقولونها بوضوح وصراحة إن مصر مهيأة لمستقبل اقتصادى هام ومؤثر.

ودليلهم على هذا أن عدداً كبيراً من المستثمرين الألمان والشركات الألمانية الكبرى، دخلت باستثمارات ضخمة فى مصر. منهم شركة «مرسيدس» وشركة «سيمنس» لمعدات الطاقة والكهرباء بخلاف عدد من الشركات الالمانية الأخرى فى مجال الصناعات الغذائية. والاليكترونيات وصناعة الأحذية والمشغولات الجلدية.

وهم لا يأتون إلى مصر بهذه الاستثمارات بناء على توجيهات سياسية المانية.. وإنما من خلال مبادرة حرة من الشركات الالمانية.. فالاقتصاد الحر فى ألمانيا لا يخضع لتوجيهات سياسية بقدر ما يخضع لقانون الفائدة والربح والخسارة.. وقد حسبوها جيداً وتأكدت ثقتهم فى الاقتصاد المصرى..

وكما يقول السفير الالماني فى القاهرة، الدكتور«فولف ديتريش شيلبنج» إنه اثناء زيارة المستشار الألمانى هيلموت كول» الأخيرة للقاهرة، حرص على اصطحاب كبار رجال الأعمال الألمان الذين اجروا اتصالات مهمة مع نظرائهم المصريين، والتقوا بالرئيس مبارك الذى شرح لهم مناخ الاستثمار فى مصر ومجالات العمل المشترك، وقد تأسس بالفعل مجلس الأعمال المصرى الألمانى الذى يضم عدداً كبيراً من رجال الأعمال فى البلدين.. وان الظروف أصبحت مهيأة تماماً لزيادة التعاون الاستثمارى بين البلدين.

ومما أسعدنى تماماً خلال جولاتى الالمانية.. أن أكتشف أن المنتجات الغذائية المصرية أصبح لها سوق معترف بها فى ألمانيا.. وأصبحت مطلوبة بالاسم.. وعندما سألت عن الأرقام.. جاءت الإجابة واضحة أن هذه الصادرات المصرية حققت خلال الاشهر الستة الماضية، رقماً قياسياً، حيث زادت بمقدار ثلاثة أضعاف صادرات العام الماضى !!

ومع كل مسئول سياسى أو اقتصادى هنا فى ألمانيا.. سواء على المستوى السياسى الممتاز او مستوى التعاون المشترك فى مشروعات البنية الأساسية فى مصر، وبالتحديد فى مجالات الكهرباء والنقل والمواصلات. حيث تم إنفاق

٩٣٠ مليون مارك كمعونات لتنمية وتجديد السكك الحديدية فى مصر. بالإضافة إلى مشروع «مبارك- كول» فى مجال تدريب الشباب على الصناعات الحديثة (المنسوجات.. الإليكترونيات.. الميكانيكا).

والذى يتم الآن على ارفع مستوى من الدقة والانضباط.

• الورقة الأخيرة •

هذه هى الخلاصة التى تبقى من هذه الرحلة الألمانية.. فأية محاولة لفهم قوة الاقتصاد الألمانى.. لا بد أن تترجم فى النهاية إلى الدقة والانضباط.

فكل شيء محسوب ومخطط مسبقاً.. ولا مجال للفوضى أو الفهلوة!

يحدث هذا فى الشارع واحترام إشارات المرور.. وحتى ولو كانت الشوارع خالية إلا أنه مع الإشارة الحمراء لا بد أن تتوقف.. ويحدث هذا فى مكاتب العمل فإذا كان الموعد للقاء شخصى- كما حدث معى- فإن الموعد له احترامه بالدقيقة والثانية.. ويحدث هذا فى المصنع كما شاهدت ورويته لكم.. ويحدث أيضاً فى المسرح.. فقد شاهدت أوبرا «كارمن» ومسرحية «هاللو دوللى» ورغم اختلاف طبيعة العملين إلا أن موعد الدخول إلى المسرح له احترامه، وغير مسموح إطلاقاً بالدخول اثناء العرض.. والستارة ترفع فى موعدها المحدد بالثانية.. والفرقة الموسيقية فى أماكنها المحددة ولا أصوات أو دردشة بين العازفين.. إنما الجميع امام آلاتهم... وعيونهم على المايسترو، فهو القائد القوى واليقظ الذى لا يسمح بأى خلل!!

ومن هذا الانضباط والانسجام.. تنطلق الموسيقى العذبة. وأعتقد أن نفس الشيء يحدث على مجال أكبر .. فى موسيقى الحياة والعمل.

فليس هناك لغز.. أو كلمة سر مستعصية ولو أدركنا هذا.. لتغيرت حياتنا كثيراً.

أنوار العـــذراء
فى سماء أسيوط !!

الذين يشككون فى الوحدة الوطنية بمصر ويحاولون فى سعار مجنون إصطياد أى حادث فردى صغير للنفخ فيه كى يشتعل بنار تأكل كل ما حولها، ودخان مسموم يعمى العيون ويسد منافذ العقل حتى لا يبحث عن الحقيقة.. إلى هؤلاء أدعوهم إلى زيارة مدينة أسيوط فى قلب صعيد مصر، لكى يشاهدوا مشهدا مذهلا لا يمكن أن يحدث إلا فى مصر!

كنيسة فى حى شعبى وسط المدينة، يتجمع حولها كل ليلة عشرات الآلاف من المسلمين والمسيحيين يرفعون رءوسهم طوال الليل وحتى الفجر فى اشتياق وتبتل روحانى مثير، ينتظرون تجلى السيدة العذراء وإشارات النور الساطع التى تفرش ضياءها بسرعة البرق على قباب ومنارات الكنيسة.. وترتفع أصوات التهليل والتصفيق مع الترانيم الكنائسية ودعاء الله أكبر فى تزاوج وتزامن مثير يهز مشاعر ويحيل ليل أسيوط إلى نهار من الفرح الروحانى المهيب.. ولا أحد ينام.. فكيف ينام والعذراء مريم فى سماء أسيوط؟!

كنت هناك.. وعشت تفاصيل ليلة لا تنسى.

كنت عائدا من رحلة ثلاثة أسابيع فى الولايات الأمريكية أبحث عما تبقى من أسطورة الحلم الأمريكى، وأعددت نفسى للكتابة عن هذه الرحلة.. وفجأة وجدت نفسى محاصراً بالاتصالات من قراء وأصدقاء يحكون عما يحدث فى أسيوط الآن، ودعوات ملحة لزيارة أسيوط ومتابعة ما يحدث على أرض الواقع.. أعجبتنى الفكرة.. تركت حقائب وأوراق الرحلة الأمريكية، لم أفتحها وألقيت بنفسى فى القطار الذاهب إلى أسيوط بين نظرات دهشة البعض لهذا الانتقال السريع من أمريكا إلى أسيوط.. واعتبرتها مغامرة صحفية فأنا لم أذهب إلى أسيوط منذ عدة سنوات والحدث الذى يحكون عنه قد يستحق التسجيل.

وتركت نفسى لشوارع أسيوط التى تجددت كثيراً وظهرت فيها الكبارى العلوية والأبراج السكنية والطرق المتسعة والمحلات العامرة بالبضائع والمطاعم.. الصورة اختلفت تماما.. أين هى أسيوط الآن من أسيوط جماعات الإرهاب والتخلف؟! ذهبت أيام الخوف والتوتر أيام الحواجز الأمنية وطلقات الرصاص

المجنون.. وصراخ الضحايا.. وعويل الشياطين.. تغير كل شيء.. خلعت أسيوط الثياب السوداء.. وتجددت فيها الروح.. ودب النشاط والحيوية وامتلأت الشوارع بالأمان وضحكات شباب الجامعة وعزم الرجال. أغلقوا دفاتر الماضى الحزين ولا أحد يريد أن يتذكر أيام الإرهاب الأسود فمرارة التجربة القاسية حصنتهم ضد أية محاولة لتعكير الجو وهم حريصون على حق الحياة فى أمن وسلام وقد كان هذا أول انطباع لى فى أسيوط.

والآن.. إلى الحدث المثير

التفت حولى مجموعة من الأصدقاء الذين رتبوا لى موعداً مع القس يعقوب سليمان الكاهن بكنيسة القديس مرقس الرسول بأسيوط، لكى يصحبنى إلى مكان مريح أستطيع منه مشاهدة أنوار السيدة العذراء التى تتجلى فوق قباب هذه الكنيسة.

هل يحتاج الأمر إلى ترتيب مكان للرؤية؟ قالوا لى سترى بنفسك!

استقليت سيارة أحد الأصدقاء إلى غرب المدينة حيث تقع الكنيسة كانت الساعة بعد الحادية عشرة مساء.. ولكن الحياة تعلن عن نفسها بكل وضوح.. فالطريق مكدس بالسيارات التى تنتظر فرصة للتحرك بضعة أمتار.. وأفواج من البشر تقطع الطريق فى لهفة للوصول إلى مكان الكنيسة.. ويبدو أن الكثيرين منهم قد جاءوا من أقاليم ومدن مختلفة.. لذلك فالسؤال المتكرر عن خريطة الوصول إلى مكان الكنيسة.. الشوارع ضيقة.. الزحام أصبح لا يسمح بمرور السيارات، أوقف الصديق سيارته وقال لى: علينا أن نسير على أقدامنا لمسافة كيلومترين حتى نصل إلى الموقع، قلت: بسيطة وأنا لا أدرى ما الذى ينتظرنى وجدت نفسى وسط كتل بشرية أفرغتها الأتوبيسات الخاصة القادمة من الأقاليم لنفس الهدف.. عائلات بأكملها يحملون أطفالهم على أيديهم، ومعهم مؤونة من زجاجات المياه.. والكل يسير فى همة غريبة ينادون على بعضهم.. ومنظمو هذه الرحلات الجماعية ينبهون على مكان التجمع فى الساعة السادسة صباحاً.. هل سيتحمل كل هؤلاء الانتظار وقوفا حتى السادسة صباحاً؟! قالوا لى سترى

واقتربنا قليلاً من موقع الكنيسة المقامة وسط الحى السكنى الشعبى.. البيوت متلاصقة والشوارع تضيق أكثر وأكثر.. والزحام يشتد.. شباب وعجائز.. نساء وأطفال.. وأنا لا أستطيع التحرك.. فالزحام يحدفنى يميناً ويساراً.. قالوا لى لابد أن تتقدم حتى نستطيع أن نصل إلى مكاننا الموعود. ولكن كيف وأنا لا أستطيع أن أحرك قدمى على الأرض وسط آلاف الأقدام المتزاحمة. قالوا لى تقدم بكتفيك.. حاولت وفشلت وكدت أسقط على الآخرين الذين ساعدونى حتى أصلب طولى.. نظرت حولى وجدت الجميع يزحف فى مقاومة رهيبة للتقدم إلى الأمام بضع خطوات.. شجعت نفسى بألا أتخاذل.. وشققت الزحام لكى أسير بجوار حائط ربما أستند إليه عندما يجرفنى التيار البشرى.. فوجئت بأن الذين يجلسون بجوار الحائط أكثر من الذين يقفون.. بعضهم افترش الأرض وجهز نفسه وموقعه لرؤية الحدث المرتقب.. أغلبهم من العجائز والنساء اللاتى نام أطفالهن على أكتافهن.

فشلت الحيلة وعدت إلى وسط الزحام الذى بلغ حداً لا يمكن تحمله.. فقررت فى لحظة يأس وتعب أن أعود.. ولكن الأصدقاء الذين حولى لم يرضهم هذا التراجع واتصلوا بالمحمول مع القس يعقوب الذى كان ينتظرنا منذ أكثر من ساعة.. وجاءت نصيحته أن نلتقى معه على مدخل أحد المنازل المطلة على الكنيسة فى شارع خلفى.

وكان علينا أن نتحرك فى هذا الاتجاه الجديد.. متصورا أن الزحام لا يعرف طريقه إلى هذا الشارع الخلفى.. ولكنى كنت ساذجاً.. فالزحام هو الزحام رغم ضيق الشارع وحيث تتكدس أسطح البنايات بالعشرات الذين يقفون بجوار بعضهم فى العراء.. فالأسطح غالبا بدون أسوار ولكن لا مكان للخوف من السقوط.. فالرغبة فى رؤية الحدث أقوى من الخوف.

ووجدت نفسى فى الدور السادس من سطح عمارة لا أعرف كيف وصلت إلى هنا.. ولكن ما أدهشنى حقاً أن السطح كان مزروعاً بالبشر.. متى جاءوا؟.. وكيف؟ لا مجال لمثل هذه الأسئلة وبدأت أتأمل الوجوه.. أكثرهم من الطبقة

المتوسطة ربما موظفون أو أصحاب مهن جاءوا مع عائلاتهم وأطفالهم.. وتسمع النداءات على الأطفال، يا كيرلس، يا مينا، يا هشام، يا محمد، مسيحيون ومسلمون فى حضن مكان ضيق والعيون كلها مصوبة ناحية قباب ومنارات كنيسة القديس مرقس.. والتى تبدو أمامنا شامخة فى ليل أسيوط، وترتفع أصوات التراتيل الكنائسية بين مجموعة من الشباب تدعو أن تستجيب لهم العذراء مريم بالظهور.

يمضى بعض الوقت، وفجأة تومض أضواء باهرة البياض تضىء جانباً من القباب وداخل منارات الكنيسة، ثم يتبعها ضوء آخر قوى يسطع على الجانب الآخر من القباب، شيء أشبه بالبرق الخاطف، يسبقه صوت كأنه رعد، كأن أحداً يدق الأبواب.

ويتكرر انطلاق الأضواء البيضاء الباهرة فى تتابع عجيب، وبمنظومة تفرش كل اتجاه على قباب ومنارات الكنيسة، وكأنها بشرى لرسالة ما.

●●

ووقفت مشدوها أمام هذه الظواهر.. لا أكاد أصدق ما أرى، وما أسمع!

استيقظت فى داخلى تساؤلات وشكوك، ألا يمكن أن يكون هناك أحد ما يحرك هذه الأضواء الباهرة، كشاف قوى، أشعة ليزر؟ وبدأت أبحث عن احتمالات مصادر هذه الأضواء واتجاهاتها، إذا كان هناك من يقف على الجانب الأيمن من القباب، فكيف يقف على الجانب الأيسر بينما الأرض خلاء؟ وكيف يأتى الضوء من أعلى.. إنه شيء محير؟

وإذا حدث أن هذه الأضواء بفعل فاعل.. وأن هناك من يحركها ويضيئها من كل جانب، فكيف لم يتم اكتشاف هذا الشخص المجهول وسط كل هذا الزحام والذى امتد من قلب الشارع إلى أسطح البنايات العالية، وهناك مثلى من يريد التأكد من كل شيء.. والسؤال فى كل شيء؟!

وإذا حدث هذا فى يوم أو اثنين.. لكان الأمر يحتمل التشكيك.. ولكن أن يستمر ظهور الأضواء بشكل متواصل كل ليلة وعلى مدار أكثر من شهر ونصف

الشهر مع ظهور الحمام الأبيض الكبير الحجم والذى ينطلق فى ظلام الليل يحوم حول القباب مع العلم بأن الحمام العادى لا يطير ليلاً. ثم ظهور البقع الضوئية التى تتشكل بسرعة كبيرة فى أحجام مختلفة لكى تأخذ فى النهاية شكل التجلى للسيدة العذراء مريم، وهو ما سجلته كاميرا فيديو دقيقة لأحد الهواة، فهو أمر يستحق منا أن نقف فى خشوع أمام رسالة السماء.

حقيقة لا تقبل الدجل أو الجدل.

إن القديسة السيدة العذراء مريم قد اختارت هذا المكان فى أسيوط.. فى قلب صعيد مصر، لكى تبارك هذه الأرض، تبارك شعب مصر، وترسل رسالة حب وطمأنينة تأكيداً للآية السماوية «مبارك شعبى مصر».

●●

فى مكانى هنا على سطح إحدى العمارات المواجهة لقباب ومنارات كنيسة القديس مرقس والساعة تجاوزت الخامسة صباحاً ومنتهى الرفاهية أن تسأل عن مقعد أو مسند تتكئ عليه وتستريح. والكل واقف مشدود بعينيه يتابع شلالات الضوء الباهر الذى يسطع بين حين وآخر.. لترتفع أصوات التهليل والدعوات والجميع فى حالة من النشوة والتبتل والصفاء النفسى.

طوال هذه الساعات ووسط هذا الزحام الرهيب.. لم أسمع مشادة كلامية.. لم تنفلت الأعصاب أو تطيش بعض الكلمات.. الكل فى سلام حقيقى.. وكأنهم عائلة واحدة يجمعهم الحب والمودة.. من يعطش، أكثر من يد تمتد بالماء، من يتعب يفترش الأرض فى حرص من الآخرين ودون عتاب لأنه أخذ مكاناً كبيراً.

حالة من الود والحرص والتلقائية على عدم إفساد جلال المناسبة.. ولهذا لم تعد هناك حاجة لجنود الشرطة للحفاظ على النظام.. وعلى طول الطريق لهذا المكان لم أصادف إلا بعض الجنود، الذين يديرون حركة المرور.. وما عدا ذلك فالكل هنا يعتبر نفسه مسئولاً أمام نفسه وأمام الآخرين عن اكتمال الصورة الجميلة.

وهى النقطة التى استرعت انتباه العديد من المراسلين الأجانب من وكالات الأنباء وشبكات التليفزيون العالمية الذين جاءوا ليسجلوا هذا الحدث.. منتهى الأمان.. منتهى الحرص على مشاعر الآخرين.. منتهى الخشوع.. فلا كلمة نابية ولا تصرفاً غير لائق ولا خروجاً عن النظام أو الآداب.. رغم أن المعروف دائماً أنه فى الزحام، قد تحدث بعض المضايقات.. ولكن هذا الزحام كان من نوع آخر.. زحام للصلاة والتعبد وانتظاراً لإشارات السماء بالخير والبركة.

ومع حلول ضوء الصباح تبدأ الجموع فى الانصراف وتدور محركات السيارات لتعود بالزائرين إلى بلادهم وبيوتهم ومعهم ذكريات ليلة لا تنسى.

ويتكرر المشهد كل ليلة منذ منتصف أغسطس الماضى.. والمعروف أن المسيحيين فى مصر يشاركهم أيضاً المسلمون يحتفلون بعيد العذراء مريم بعد صيام أسبوعين ينتهى فى ٢٣ أغسطس ويشهد دير العذراء بجبل أسيوط درنكة احتفالاً كبيراً بانتهاء الصوم. ففى هذا الدير، وداخل مغارة، كانت نهاية رحلة العائلة المقدسة عند هروبها لمصر فى القرن الأول الميلادى.

وفى هذا العام كان الاحتفال مزدوجاً.. احتفال داخل الدير واحتفال داخل كنيسة القديس مرقس والتى تم تجديد إنشاءاتها منذ عامين.. وكأنه تجديد وتأكيد لمسيرة العائلة المقدسة على أرض مصر ففوق قباب هذه الكنيسة شهد سكان المنطقة أسراباً من الحمام الأبيض والأنوار الساطعة.. ورأى الكثيرون تجلى السيدة العذراء بصورة نورانية.. ومنذ اليوم السابع عشر من أغسطس ازدادت مرات التجلى ليلاً بصورة مكثفة يومياً حتى كان يوم الخميس ٣١ أغسطس وفجر السبت ٩ سبتمبر ليتخذ التجلى شكلاً مؤكداً وسط أسراب الحمام الأبيض وسطوع الأنوار الباهرة.. مما دفع وكالات الأنباء والصحف وشبكات التليفزيون العالمية لأن تتناقل تقارير يومية مفصلة عن الظواهر التى تشهدها مدينة أسيوط لأول مرة فى تاريخها.

واللافت للانتباه فى تقارير وكالات الأنباء العالمية بخلاف الدهشة فى رصد هذه الظواهر السماوية فى سماء أسيوط هو التأكيد على روح المحبة التى جمعت بين المسلمين والمسيحيين من أهالى أسيوط، والذين يفتحون بيوتهم كل ليلة مرحبين باستقبال الوافدين من الزوار والرحلات، يفترشون أسطح المنازل التى

بلا أسوار، والمساكن تحت الإنشاء، ويوفرون للزائرين الخدمات والمقاعد في تعاون كبير.. وأن الزحام يشتد في أمسيات الخميس والجمع والآحاد من خلال رحلات مكثفة من أقاليم الصعيد، بالإضافة إلى رحلات من كنائس الوجه البحرى والإسكندرية والقاهرة.. في صورة متزايدة يوماً بعد يوم وأن أسيوط لم تشهد شيئاً مماثلاً من قبل واعتمدت تقارير وكالات الأنباء على أقوال شهود العيان ورجال الدين الذين تابعوا هذه الظواهر السماوية، والتي أكدت هذه الشهادات صور وأشكال تجلى السيدة العذراء في هيئة نورانية والطرحة الناصعة البياض على رأسها وكيف تتحرك ببطء في جميع الاتجاهات بين قباب الكنيسة ومناراتها (من تقارير شبكة C.N.N و B.B.C ووكالتي أسوشيتد برس ورويتر ومراسلين من صحف إيطاليا وفرنسا وبلجيكا وعلى شبكة الأنترنت).

وسجل دفتر الزيارات بكنيسة القديس مرقس بأسيوط، شهادة زائرتين من فرنسا وألمانيا وكيف أنهما شاهدتا على شبكة الإنترنت أخبار وتقارير ظهور السيدة العذراء في أسيوط فقررتا المجيء معاً وهما صديقتان لمتابعة ما يحدث على أرض الواقع، وسجّلا مشاهداتهما وكيف قضيتا ليلتي ٩ و ١٠ سبتمبر تشاهدان أسراب الحمام اللامع الذي لا يصدق وهو يطير حول الكنيسة في منتصف الليل ونوراً غير عادي يظهر من أبراج الكنيسة وحولها، وكأنها أنوار البرق ولكنها ألمع بكثير وكيف تكررت هذه الأنوار طوال الليل.

وتحفل سجلات الكنيسة بكثير من هذه الشهادات المماثلة، وأيضاً بالعديد من محاولات تسجيل هذه الظواهر السماوية بكاميرات دقيقة.

●●

والمعروف أن ظهور السيدة العذراء قد تجلى أكثر من مرة في كنائس مصر على مدار القرن العشرين، أبرزها في كنيسة العذراء بالزيتون عام ٦٨ وفي شبرا عام ٨٦.

وها هي الرسالة السماوية في بداية الألفية الثالثة وعلى أرض أسيوط، وهي رسالة خير وطمأنينة وبركة.. ومبارك شعبي مصر».

الفهرس

صفحة